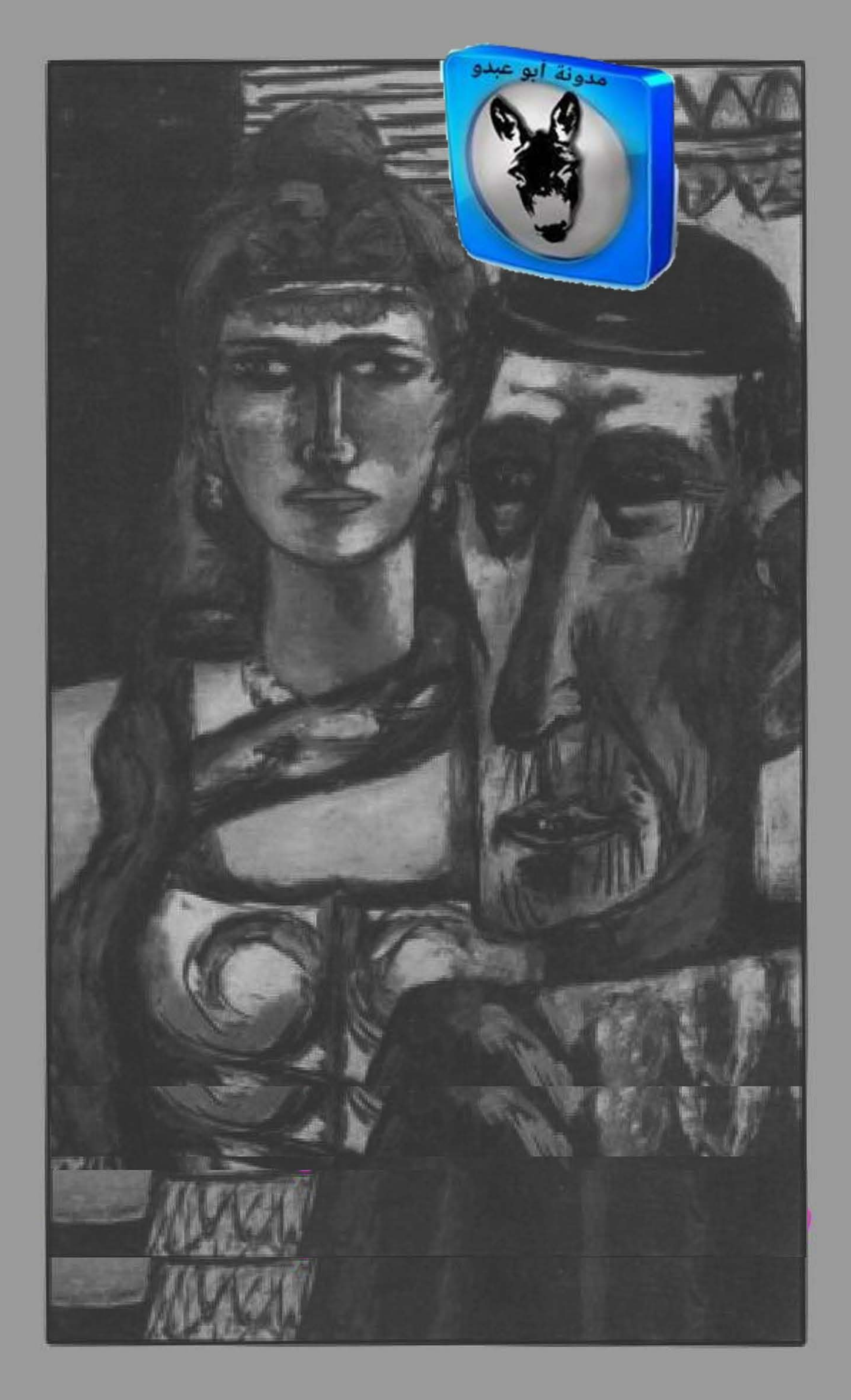
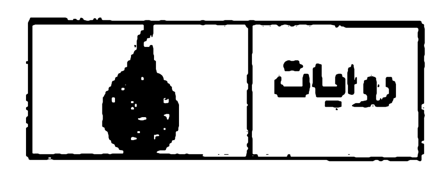
إبراهيم حسيب الغالبي

اعترافات كائن



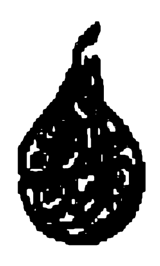


رواية



♦ الكتاب: اعترافات كائن

♦ الكاتب: إبراهيم حسيب الغالبي



للتأليف والترجمة والنشر

دمشق – حلبوني- الجادة الرئيسية

تلفاكس 2236468 جوال 0944 330989

ص. ب 11418

WWW.ATTAKWIN.COM
INFO@ATTAKWIN.COM
taakwen@yahoo. com

إبراهيم حسيب الغالبي

اعترافات كائن

الفائزة بجائزة موقع الروائي لعام 2008

دار التكوين

إلى كل من عاشوا لحظة ألم

إلى

من تجرّعوا الصمت كي لا يسيئوا إلى الحقيقة

إلى

من سحقتهم أيام ماضية

من يشتهي طبق الحصار.. لكنه الوحيد أمامي على السماط، بندورة مقلية ورأس بصل كبير مع خبز بلون التعب وطبق حساء لا لون له ولا رائحة. أحدّق لبضعة دقائق جائعة. ربّما نسيتُ كيف استخدم الملعقة؛ وربّما انتبهت خمائل لحيرتي فراحت تدسّ الطعام في فمي بحنان ساخن. ترتفع حرارة الحساء في جوفي؛ وزوجتي لا تنقطع عن ملاعقها المتلاحقة، لم يسبق أن أطعمتني كلّ هذا الدلال، لم يسبق أن أطعمتني بهذا الشكل منذ زواجنا إلى ما قبل اعتقالي بساعة أو ساعتين. هاهي ذي تحشد صدقها في يدين تترددان بين فمي والطبق؛ بينما ترزح يداي تحت ثقل اللاكتيك المجتمع في أنسجتي. لم أقل لها إني شبعت، سئمتُ من شبعي.. أتت ملاعقها على الطبق وانتقلت قبل أن أتجشّا إلى الخبز والبندورة كانت أصابعها مخضّبةً بحنّاءٍ أحمرَ.. وقف اللون مارداً يتوعّدني بفصٍّ داميٍ، يُشهر لزوجته الرهيبة الخالية من الوقت. لقد أطلق المارد سراحي وأعاد خاتمي العقيقي من أماناته وقال لي: أذهب إلى المنزل، أذهب يا ثائر مجدول.. كرّرها ما لا يحصى من المرّات، فما معنى أن يمتطي يديها الآن ؟! ما معنى أن يندلع وعيده في لقمة الخبز المغموسة بحسناء[1] الفقراء ؟! أيّة لعبة يكرّر مواعيدها البذيئة معي!.. وقبل أن أقرّر جهة الاعتراض.. كميّة العصيان.. لون الممانعة التي أرتضي، كان الحساء الساخن يمترض اعتراضاً متواصلاً، اندفع ووقع على الأطباق؛ اختلطت أجزاؤه بما تبقى من الطعام. تصرّفت هي بهدوء ولم تُظهر إلاّ تقزّزاً لم يتّضح على وجهها تماماً لولا أنني أقرأ في طبقته الثانية منذ عامين. لم أجد في رأسي إلاّ

---

[1] - في سنوات الحصار القاتلة أبتدع العراقيون الفقراء للبندورة اسم الحسناء.

عينيَّ ورحتُ أجيلهما فيما حولي إجالة الطفل في الذات الواجبة. وحين ذهبت لتأتي ببعض الخرق الجافة لتنظيف المكان حاملةً معها بعض الصحون من الخليط؛ سئمتُ أنا من عينيَّ.. من المنظر الذي يكرّر نفسَه فيهما، وانتبهت إلى جزءٍ آخر منّي. كان حريّاً بيدي اليمنى أن تعترض بإرادة كاملة غير منقوصة الضجيج، ولهذا حملت إناء الماء وطوّحت به بعيداً في فضاء الغرفة؛ وهبط ليرتطم بالجدار؛ صرخ هناك كبريء معلّق في كنّارة المردة. وما لبث أن تظاهرت كلّ أعضائي بتلوّناتها وعروقها وشتّى اتجاهاتها... لا أنكر أنّني كنتُ ككثيري، من الصعب أن أقود جميع أعضائي في لحظة واحدة. لكنني كنتُ منضبطاً أسير في كلّ الجهات بانتظام خارق وكان هو مشبعاً بالفوضى، مُسرِفاً بضخامة صوته الذي لا يكفّ عن وعيده، يؤكّد لي أنّني مُدان بأكثر من تهمة لم يحاسبني عليها من قبل.

كان المارد يحاصر جمعي المعترض. يبصق على شعاراتي المرفوعة بوجهه، مع أنّها هتفت تحت غيبوبة الوقت بالروح .بالدمٌ ... وفي لحظة ما تحول الأمر إلى مطاردة حين أيقنتُ أنّه قرّر قمعي وإلقاء القبض على بعض الأعضاء النشطة. هربتُ منه؛ ولذتُ بجميع الأشياء التي أبت نصرتي على هذا المارد وراحت تتآمر معه؛ تهزأ بشتاتي وتناثري بينها. كنت يهوديّاً يحاول الاختباء وراء حجارة ناطقة.. حجارة تدعوه بإخلاص" ورائي يهوديّ تعال فاقتله"... ويأتي، يأخذ بخناقي، يلكم وجهي بقبضته الفولاذية ويطرحني أرضاً على بقايا القيء.. على رأس زوجتي الهاربة. كنتُ أهجس أنّ شيئاً جديداً يعتري هذه المواجهة، شيئاً له آثاره التي يمكن أن تقلب موازين الأمور لصالحي. كان قدراً.. ذلك الشيء الذي ليس له قيمة إلاّ في لحظته، ولهذا دلّني على لحظته. ومع ذلك فلا يمكن للزلزلة الكريمة أن تخضع للوصف،

إنّها جوهر الغموض.. سحر العبث الذي يرتّب الأشياء، يصنّفها إلى ما هو ضارّ وما هو نافع. ومن تلك اللحظة .. من التوتر الهائل في مضغتي الهادرة ولَجتُ إلى حيث يقف المارد على أنقاض عودتي. لم استعطفه ولم أسأله بوجهٍ أصفرَ أن يحمل بيده بيضاء ناصعة المعروف معي. بل اتجهت إليه، إلى رأسه الضخم وملاك جراتي يرفرف على طول المسافة التي تفصلني عنه. تصدّيت له بركلةٍ ماضية جعلته يترنّح وأعلنتُ زفاف لحظتي إلى زمنها الصحيح. أعقب ذلك القدرَ صرخةٌ مدوّية، صرخة أنثى في نوبة طلقها البكر سرعان ما خبت تحت حطام صحوتي من ذلك الوجه الكريه.

ماذا حدث أيّها العبث الساحر؟ كيف تُرتِّب أعمدة الدخان في غابة محترقة؟! لم تكن إلاّ زوجتي تتلوّى في زاوية من زوايا الدار. لم تكن الأشياء إلاّ أنا وبضعة أواني وأفرشة... كانت تنظر إليّ كما انظر إليها والصمت يقطف من ألوانها ما شاء له هذا الجنون العاصف الذي أجتاح المكان. كانت محشورةً في أمان ساذج وقد رُسم على جانب فمها خيطٌ أحمر من دمها الفاتح بمرض شفتها المزمومة.

- هل أنتِ بخير؟ ما الذي حصل يا خمائل؟!

أورق السؤال دنيا جديدة ما لبث أن تبرعمت في أنحائها ملذّات ناعمة وشهوات صغيرة تنمو على وجهها، تسرّب شيء من بريقها إلى روحها المنكسرة، كان لسؤالي لحظتئذ رهبة المعجزة وهيبة آلهة. نهضتْ بتثاقل يعاتب وقفتي الفرعونية وانتصاب جذع مروءتي أمامها. ما رأيتُ قطّ مثل ذلك الوميض الذي لاح في عينيها وجعلني أرتعش بكلّ رجولتي المتبقية. أطنّ حولها كذبابةٍ مسمومة. أتوزّع بين أمكنة خادعة ولا أملك غير الحيرة...

ما الذي جرى لخمائل يا تُرى ! هل شاركتني تلك المعركة الشرسة بكرّها وفرّها الغابوي لكنّها حين استلقت في السرير إلى جانبي قالت بأنّي كنتُ قاسياً جداً وانّ جنوني كان ضارياً إلى درجة أن زجاج نافذة الصالة الصغيرة وهي النافذة الوحيدة التي تعرف الزجاج بالإضافة إلى نافذة غرفة نومنا قد تحطّم بالكامل ولم يبقَ إلاّ قطع مدببة في الحوافّ الجانبية. لم تكن خمائل بليغةً كما كانت في تلك اللحظات وهي تصف لي معركتي معها وزجاج النافذة، بدت ملامحها بهيّةً تترقرق في وداعة راضية، وأكّدت لي أنّها لا تشعر بألم الضرب... ناكدتني قليلاً بلفتاتها ونظرات عينيها اللتين تفوران بشبق امرأة طاهرة. قالت إنّها تتفهّم .. ثمّ أنزلتْ يدها خلف عنقي ولم تكمل ما همّت بقوله، انساب جسدها إليّ راضياً ثملاً بمقتنياته الفاخرة وهمست في أذني، تحي لي بدنيا مطلقة اللذّة والجمال. كانت تشرق مع همساتها؛ تزداد بهاءً لا تسلّه المرأة إلاّ فوق أسرّة الليل وفي مخادعه العاصفة ... تستدير وجوه الأشياء وتتربّع القلوب على خفقات تتغنّى بنوادرَ وحكاياتٍ وطقوس. بصري يتدرّج بقوّته منطلقاً نحو الواقع، الواقع الذي يرقبه الخيال كي يلمّ بعضاً من ألغازه وأحاجيه. تتدفق حرارتها المغرية ويحلّق على شفتي طائر من عسل... ستّة أشهر أمضيتها في المعتقل؛ ولم ألمس خلالها سوى تخثّري، في الأيام الأولى كنتُ أنتقي لها بعضاً من ملامح الجرأة المشاكسة ثمّ ويكلّ ما يعنيه التراخي الزمني هنا ألفيتها عائمة في سماء بعيدة بعد الخلاص الذي كنت أنظر إليه في الظلام من حولي. الخلاص الذي وصفه الشيخ راضي الرفيق الأقدم في زنزانتي بأنّه من العيب أن نفكر به ولو للحظة حين كنّا معاً نعدّ ساعات تلك الليلة القاسية.

غمستني في حلاوتها، في همسيس مخابئها المتوقدة. أقبع هناك في حلال السعادة التي تميّز أزواج الخليقة. ما الذي يجعل من رجلٍ مثلي منتفخاً إلى ذلك الحدّ من غيبوبة الفرسان ؟ أشمخ كقائد لكتيبة تعذيب محترفة، تترى قطرات البذخ في إناء مجرّتي، في قواقع ملتصقة على سواحل دهشتي. وتصل خمائل إلى نهاية الغصن بعد مثابرة مُلهَمة، تتأمّل موضع الفاكهة، تصل حيث أنا... أنا كمعنى تقرأه المرأة لأكون لفظاً سائغاً بين شفتيها. لست أدري كيف كان شعورها وهي تحدّق بالمشهد الذي كان أمامها ! نعم رأيتها ذاهلة وعيناها تومئان إلى لهثةٍ ميّتة. كنت أجهش بالصمت في وجهها وأحاول أن أبقى ساكناً، الاّ أحرّك من جسدي شيئاً، فالمقابر تحترم الموتى بصمتها وسكونها الهادئ. وأخيراً اكتفت زوجتي بالقول :-

- لقد فعلوها بك إذن ..

-2 -

لا تختلف غرفتي عن الزنزانة إلاّ كما يختلف الحال بين الحياة والموت، النور والظلمة، الحقّ والباطل. ينساب الصباح إليها كما الفرح إلى قلب المرء، يدور الضوء كما تدور الغبطة والبهجة في النفس. أصدّق وأؤمن بما أراه وألمسه لمس اليد والقلب والروح. أنظر إلى الباب الموصدة كشَفَةٍ محبوبةٍ خَجِلة تغمض عينيها عند قبلة اللقاء. لقد أغلقته خمائل وستفتحه هي ما أن أنادي باسمها العذب.. ورحتُ اصرخ كطفلٍ يطلب الرضاع. لكنّها لم تأتِ، ربّما لم تسمع ففي وقتٍ كهذا تكون مشغولة بعجينها وخبزها في الفناء الجانبي للدار حيث تقبع التنّور الطينية. ما زلت أذكر صباحاتها ولا شكّ. أداعب هذا الدلال وتبجّلني الحريّة بلقب ملَكيّ، تحثّني على البقاء في الفراش،

استغرق في نعيم الخلاص أتذوّق انعتاقي من ربقة أولئك المردة العتاة. دفعني الإحساس بالنشوة والطمأنينة العارمة؛ بالسكينة ونفحات الأمل بأيامي القادمة إلى أن استعيد هازئاً بعضاً من مشاهد خرائبي، ذلك الحشد من الكوابيس التي ما أن أفيق من أحدها حتّى يخترمني كابوسٌ آخر يأتي على كلّ ما أملكه من طواقم صحوتي. يا لها من حركةٍ للنفس، تبدو وكأنّها صبيٌ يقارن بين لعبتين في يده. ودونما انتقاء فالأشياء في عالم كهذا متساوية ككميون المردة تراءى أمامي منظر الأستاذ أبي بلقيس وهو يضرب الجدار بمؤخرة رأسه الذي أفرغوه من ذاكرته قبل أسبوعٍ واحد من تاريخ الإفراج عني. كان يضرب رأسه بالجدار ويردّد أبياته النازفة كلّما تيقنّا أنّ يوماً آخر يهدر تاريخَه خارج الأسوار. كان يكثر من ترديد أبياته تلك على الدوام كما تدوم الصباحات وتولد أيام الأرض بعيداً عنّا. لقد حفظتُ بيتين من شعره الشهيد، شعره الذي قضى تحت وابل العصيّ التي تكسّرت فوق جمجمته.

تدور الأرضُ والأيامُ حولي
ولا ليلٌ أراه ولا صباحُ
لقد حصدتني للبلوى رياحٌ
وكانت من معابريَ الرياحُ

هكذا كان في وقته المخنوق بالريح، يحصدُ همومه دون مواسم أو مواقيت. لم أكن قادراً لما اسمعه من الشيخ راضي والأستاذ على أن أحلم مجرد حلم عابر بالعودة. لكم قالا أنّ القدر معلوم ولكن يبقى الله وحده علاّمَ الغيب. لكنني الآن في ذات المكان الذي انتزعوني منه عارياً قبل أشهر والذي قال عنه الشيخ في الزنزانة الأخيرة التي وضمونا أنا وإياه فيها معاً:- لن تعود إليه، لكنّك ستراه ما دام هو الأمنية فالحقّ في الملكوت أن لا فرد إلاّ الله ولا صمد إلاّ هو، وواقع الممكنات يختلف، يختلف يا ثائر. إنّها مركبّة لها صورتها التي

يحضرها الربّ في طرفة عين.. سترى زوجتك ومكانك الذي ترغب منها وستحفك حور العين..

أذكر أنني فزعت من حور العين لم أشتهِ سوى المكان بخمائله، بحقيقته المادية، بفيئه الأدنى الذي تشاركني فيه حوّاء معرفته وأسراره.

- خمائل.. خمائل...

أين ذهبت حوريتي؟ هل تنتظر أن أخرج لأقبّل أعتاب جنّتي؟ أن أحجّ إلى قداسة أسرارها الملونة؟ تهبني اللحظةُ مشاكسةً ناعمةً مع هذا المنحنى الرماديّ. كنت أطمح أن تأتي هي لتفتح أولّ صباحٍ راغدٍ يجمعني بها بعد هذه الأشهر الفاجعة المظلمة. أتأرجح كقاربٍ يجرّب أولى رحلاته صوب الأفق، أخطو مثمراً بصورة خمائل وهي تجلس تلك الجلسة الناعسة التي تحبّذها النساء كأوّل الدغدغات؛ نافلةً من الأغراء لشبابٍ دائم التوثّب يعزف على وتر الوسادة المشغولة، وسأجد أمامها الصحيفة النحاسية وإبريق الشاي وقطع الخبز المحاصرة. أقابلها بألم شجرةٍ عارية فلخمائل أن تفطر بالشهد ومثلّثات الجبن وأكواب الحليب الذي يشبه جلدها. أمسكتُ مقبض الباب وفتحته على بلاط ملكتي. ليس ولهاً مفاجئاً هذا الذي أغنّي له والرثُّ لوجه مهابته. ليس هبّةَ شوقٍ في مقابل سكون طارئ ألمّ بأشهري الستة الماضية. فخمائل دفئي الذي غنمته بعد رحلة صقيع لخسارات متوالية قبل أن أرسو على ضفاف سحرها والقها.

سمعتُ صرير الباب الخارجية ونظرت من النافذة، كانت تتهادى بخطوات مدلّلة وهي تحمل في يدها طبقاً مغطّى بقطعة من القماش.

- صباح الخيرات أيّها القمر.

وتناولت الفطور، أفطر لأوّل مرّةٍ منذ ذلك المساء العاري. شهية عامرة ومعدة مهيأة لابتلاع خروف بكامل شحمه ولحمه. لقد أتت خمائل بالقشطة العربية المغموسة بحليب البقر الطازج، طبق له طعمه

لكنّها لم تبخل به على حبيبها العائد من جوع طويل. غير أن وجه خمائل لم يكن بإشراقه وبشاشته المعهودة. كان فيه من الجفاف ما يطمئن بطائع الجنوب، وحين تطرق تبدو في غير ملامحها الوادعة وتتحرّك يداها بشكل لا نبض فيه.

- مرّ هاشم كثيراً في غيابك.

لا شكّ أنّ القشطة قد ذكرتها به. فحين كان يقرّر هاشم البقاء عندي في بعض الليالي فلا أكرمه إلاّ بهذا الطبق المفضّل لديه؛ وليمة الصباح كما يسمّيه.

- بذل في سبيل إخراجك من هناك الكثير من المال. دفع لأحدهم مبلغ خمسمائة ألف ولكن الرجل خدعه ولم يفِ له بما وعد، أخذ المال ولم يره ثانيةً إلاّ في احتفالية ميلاد الرئيس وهو يقف مع ملاحه خلف أحد المسؤولين. لم يبدّد حديثها ذو اللهجة الفاترة ملامح وجومها، لم يزدها إلاّ انكماشا وغبرة تنطوي على تلك الحيل من التعبير للنساء ذوات الخبرة في تربية الأزواج.

- هل تشكين من شيء يا خمائل؟

ومرّ صمتها مسعوراً بوجه مسكنتي. كيف ترتقي العيون المختبئة إلى معنى دون ألفاظ تحطّ من شأنه! لم تجب وتلقفتْ يدُها قدح الشاي لتملأه ثانيةً وتعيده إليّ. لكنّني أواصل حُمقي وأسألها لعنةً أخرى:

- لا تبدين على طبيعتك اليوم؟

كيف تجزم أنّها تبدو على غير طبيعتها ! هل رأيتَ أيامها الماضية أيّها القادم من غير زمن الآدميين؟ وانفصلت خمائل بضميرها الهادر؛ ضمير المتكلّم المترفع عن سؤال سافل، يعترض الطرق إلى تفاهة من تفاهات الرجل وأسئلته الخرقاء.

في العاشرة طُرِق الباب وفُتِح في لحظة واحدة. كنتُ جالساً أديم النظر إلى السياج الذي ما زالت لبناته القديمة غائصةً في رطوبة الشتاء الماضي. أطلّ بقامته الفارعة وكرشه البارزة وملابسه التي تلمع

بألوان مطليةٍ بذوق ذواتيّ النزعة. ألهمتْ رشاقتُه أطرافي ما يقترب من خفّته ووقفتُ ليحتضنني وهو يردّدُ بصوت مخدوش آية الحمد على سلامتي. فضّل أن نبقى في الفناء جالسين تحت الشمس الضائعة خلف الغيوم. وراح يطرح أسئلته الواحد تلو الآخر، نبشتُ له في جراحي كلّها التي نظر إلى بعضها مسترجعاً حيناً ومستغفراً — لا أدري لمن - حيناً آخر.

- من أين جاءوا لك بهذه التهمة؟ ما أنت والسياسة..
- لا أدري!
- حاولتُ والله يا ثائر دون جدوى.. كنتُ آمل أن يفرجوا عنك مقابل مبلغٍ من المال. ولكنّهم أخذوا المال دون أن يفرجوا عنك. ولسوء الحظّ فأن الضابط الذي أعرفه في المديرية كان قد نُقل إلى محافظة أخرى قبل أيام من دخولك هناك.. عموما فأن الصداقة مع هؤلاء لا تأتي بالكثير كما تعلم لا سيما وانهم اتهموك باغتيال أحد رجال المخابرات ثم قيل أنه من أعضاء الحزب. اعتقد انه لولا اعتراف الجماعة التي نفذت الاغتيال بالفعل لما افرجوا عنك.
- أعلم

وراح هاشم يسرد أدقّ التفاصيل فيما يتعلّق بقصّة المال ورشوة الخمور والولائم والغرف الحمر وما بين ذلك من هدايا صغيرة تذوب فوق أيديهم وألسنتهم في لحظات الوقوف على الرصيف أو عند زيارة للحصول على موعدٍ آخر للمساومة. وأكد أن أوجع الضربات كان قد تلقّاها من شخص يعمل سائقاً لمدير التوجيه السياسي والذي استلم مائتين وخمسين دولاراً دون أن يسلّمني كما هو متفقٌ بينهما. ولكنّه على أيّة حال ليس الوحيد من ظلّل عدالةَ البحث عن قبري.

أعدّت زوجتي غداءً فاخراً وجاءت بدجاجة منبطحة على صحيفة من الرزّ مع طبقين لسلطة خضروات ناعمة. كانت تبدو على حال أرقّ وربما رأيتها تغطّ مرّةً أو مرّتين في الضحك من نوادر هاشم لكنّها لم

تطلق حمائمها تماماً. كان وجهها قطعة قاسية يختنق بالكآبة حين تبادلني الحديث باقتضاب حول بعض الأشياء العابرة. لم يخطر ببالي أن أسألها عن المال الذي تنفقه خلال المدّة الماضية إلاّ بعد أن سألها هاشم عن سعر الدجاجة ووجدها مناسبة لاستعراض أسعار المواد الغذائية في الأسواق هذه الأيام فسردها بطريقة صحفية كمن يخبر عن وجود بلاد جديدة لم تُعرف على الأرض. ربّما كان ذلك مقدّمة منه لأخباري بقرار فصلي من الدائرة التي نعمل بها فهو قلما يتطرق لأمور كهذه. جمّد الأسف يدَه وهي تحمل الملعقة أمام فمه ليؤكد انّهم اتخذوا قرار الفصل بعد اسبوع واحد من تأكد خبر وجودي في مديرية الأمن على حدّ ما تناهى إليه. ولا أحد يعرف إن كان ذلك بأمرٍ من الجهات العليا أم انّه مجرد اجتهاد من مجلس الإدارة. لم يكن لسؤاله أهمية فاجتهاد الإدارة هو الآخر قرار صادر من تلك الجهات العليا، ولكنّ هاشماً كغيره من الموظفين على ما أظن، لا بد له أن يبحث عن سؤال لجواب تتردد أصداؤه في غرف وزوايا الدائرة.

كانت المنشفة التي استعملها هاشم والتي جلبتها خمائل من غرفة النوم جديدة وذات وشي رائع ونادراً ما كانت تدخل مثل هذه القطع الباذخة إلى بيتي. كان وهو يتأنّى في تجفيف يديه يبدو كذلك المارد الذي رأيته في غرفة التعذيب عندما سحبوني إليها من الزنزانة ذات ليلة.. كانت الليلة الثالثة أو الرابعة لي في ضيافتهم. أذكر حين حملني الشرطيان إلى هناك سمعتُ صراخ امرأة، صراخاً لم أسمع مثله في حياتي ولم أكد أصدق أن للمرأة طاقة على الصراخ إلى هكذا حدّ.. صراخاً يحمل كلّ رعب العالم، كلّ صَغاره وذلّته، صراخاً جعلني انظر إلى صدري وأنا أتخيل أنّه قد أثمر كرتين تختضنّان في عري يفضحه النور، النور الذي يفضح الأجساد ويخبئ الشياطين. سمعتُ أحد الرقيبين اللذين يحملان جثتي إلى مقبرة مؤقتة وهو ينعتها بلقب داعر ويتندّر من صرختها تلك. هناك رأيتها محكوّمة في زاوية قرب

الباب، عارية في صحوها المهزوم متجمدةً كأنها تراقب المارد الذي كان واقفاً بفسل كفيه من لزوجة الحلوى التي علقت بهما. ثمّ أستعمل منشفته الزاهية يمرّرها بترف هادئ على صفحات خدّه وجوانب عنقه اللامعة. وحين رمقني أبتسم وهو يحرّك حاجبيه كمن حضي بطلبةٍ عصية لانت له بعد جهد. فبّدوا يديّ إلى الوراء وحملتني ألتهم إلى ارتفاع يناسب قاماتهم، كانت العصي والأسلاك متناثرة في مكان أمامي أغلبها مكسور أو متهرئ وثمة مكنسة ذات عمود خشبي طويل أستُلّ فيما بعد وضُربتُ به حد الغيبوبة الحقيقية. تأرجحت فوق جسدها العاري ورأيتُ أن الدم قد تجمد بحياء على جوانب غير مباحةٍ للوصف. كانت منهكة ومبعثرة، بدت من تلك النقطة التي أنظر منها كحشرة مسحوقة. لم يُلقِ منشفته بل رافقته نحوي، تجفف خطى القدر من أمل سقوطه وانحنائه أمام منظري الكسير الكسيف المتهرّئ. قال لي بهمس:-

- سنعترف هذه المرّة.. ما رأيك بهذا اللحم؟

جملة لم ترتبط ألفاظها في ذهني إلاّ بقدر ما يرتبط القدر بغيبه.. المنشفة بجفاف ريقي.. أنا بالمارد.. وعاد ليهمس ثانيةً:-

- إنّها ضيقة وناعمة.. ما رأيك.

لا يبدو أنّها تسمع أو ترى. ساكنة كما رأيتها عند دخولي، هل للشيطان أن يعرض بضاعته بهذه الصورة؟ ولماذا اصمت كميّتٍ لا يعي أن من يجري له الغُسلَ فتاة عارية مثله!

ألقى الأشياء من حوله وانتفضت ريحه لتعصف بي بعدما أمر الشرطيين أن يرفعا جثّة المرأة الميتة من المكان واصدر لهما تعليمة غامضة بشأنها. من أعاده الآن ليقف أمامي..؟ لقد خرجتُ من تلك الغرفة تاركاً بعضَ لحمي هناك ولن أعودَ.. لن أعود إلى تلك المنطقة الفاصلة بين الحياة والموت والتي تعاندُ الوقتَ الرحيم لله في عباده.. لن أعود إلى الدم والمنشفة وذباب ندمي على تلك الحلوى. لكن وجهه

المصعوق برغبة قتلي يدنو.. يدنو بلا تردّد يختال طرباً شبعاً ثملاً أمام حزني وجوعي وصحوة ذاكرتي. لستُ معلّقاً هذه المرّة ولن أخشى أن يقطع جزءاً آخر منّي. سأكيل له الركلة بالركلة والصعقة الكهربائية بأختها. سأقاومه .. بل سأنقضّ عليه لأباغت حساباته قبل أن يلمس شعرةً واحدة من زندي. واقتحمت ما لم أجرؤ يوماً على اقتحامه بهذا العناد وهذه القوة التي لا تبالي بأحد مهما كان وزنه وحجمه. ضربته حدّ أنني أدميتُ نصف وجهه.. ركلته في بطنه مرات عدّة وأخيراً سقط إلى الأرض .. سقط كأيّ إنسان آخر يمكن أن يسقط. كان يتناهى إليّ صوت امرأة بدا لي أنّه آتٍ من بعيد .. صوت يستغيث ويطلب الرحمة. أتراها تلك المرأة العارية التي حملوها من غرفة التعذيب؟ ولكنها لم تكن سوى جثّة هامدة. ما زلتُ أبصر بركة الدمّ التي تركتها في المكان، بركة تلتهب بكلّ حرارة الجسد الذي فارقته، هكذا شعرتُ... سمعتها تهدّدني بالعري وخُيّل إليّ أنّها تحمل بعضاً من أسراري الغالية. أسرار لا أريد لها أن تتعرّى أمام كائن بشريّ أياً كان. رأيتها تقف دونه .. من ذا يدافع عن قاتله؟ من ينصر مارداً على أبناء جنسه ؟! كانت هي بعينها تضع يدها في صدري وتدفعني بكلّ قوّتها عنه. لقد شككت لحظتي.. لم أقوَ على اجتيازها، ربّما كنتُ مبالغاً في رحمتي بها.. وأخيراً هرب ممتطياً لحظتها التي أبت أن تتدحرج عن زمني.

سمعتُها وهي تقول "اهدأ أيّها المجنون.. إنّه هاشم". لم أفهم ما كان يهذرمان به لبضعة دقائق قبل أن تخبو ثورة خمائل وينزوي هاشم في جانب السياج. ثمّ وقفت زوجتي إلى جانبه وأنا أديم النظر إليهما.. لم أرَ من قبل إنساناً ينطفئ بهذا الشكل المخزي إلاّ في تلك الكهوف الباردة المليئة بالرعب والموت. وقبل أن يهمّ هو بالمغادرة قال بالحرف الواحد إنني عاقل.. عاقل لا ريب في ذلك.

مساءً، هيّأت لي ماءً ساخناً في الحمّام وأحكمت إغلاق نافذته الصغيرة وفجوات البرد المترامية حول الباب. كانت المرّة الثانية التي استحمّ فيها منذ عودتي، ورغم رغوة الصابون الكثيفة والتي كرّرتها كمن يكرّر لعبة مسلية لم أصل إلى جلدي ولم أفلح في أن أفتح مسامة واحدة من مساماته المغلقة، ظلّ قابعاً تحت طبقات من لون خادع.. لونٍ أضافوه لتزوير سمرتي الشروقية الفاتحة. تأملت وأنا أجيل تلك الرغوة جزئي الأسفل.. يا له من منظر مفزع، كيف أطاقت خمائل النظر إليه! وهناك.. في ذلك الحيّز من الصابون وجيولوجيا أشهري الستة كنتُ كمن يكتشف حقيقة غائبة لم يعرفها من قبل.. حقيقة يقف عليها في لحظته.. إنّ عضواً من أهمّ أعضائي قد سُرِق ولم يبق منه سوى شئٍ يسير لا يكفي. تركت الرغوة تجفّ على تاريخ منقوع بالدمّ والبصاق ومخاط الحقائق المؤلمة لأنظر في بقيّته والدائرة المستوية التي تحاول جمع محيطها إلى المركز والتي ضربت هندستي في الصميم.. ما الذي أنتظره من شئٍ مقطوع الرأس.. حين تطيح الرؤوس فلن تعود إلى أماكنها..

عدتُ إلى خمائل، ليلتي هذه تختلف عن سابقتها. تختلف في أشياء عديدة أوّلها هاشم الذي أصرّت خمائل على إحضاره ليشاركني الفراش إلى جانبها

- لماذا فعلت هذا مع هاشم ؟ لماذا صفعته على وجهه؟؟

ويصمت الحق الملعون في قرارة الجثّة.

- لم يقصّر معك في شئ!

ويضرب أبو بلقيس رأسه في الجدار.

- لم يكن هذا جزاؤه منك..

أعي أنّه يهزأ بي، بفراشي البارد الذي لا حياة فوقه سوى لخمائل. وها هي وحدها من يتكلم. "اللعنة على هاشم" قلتها لأثبت لها مقطعاً من مقاطع رجولتي المعطوبة. وتكفّ عن مواصلة الحديث. أبلغ ما تأتي

به خمائل هو صمتها عن مواصلة حديثها حين يكون له معنى مفهوم.. مفهوم حدّ أنه لا يُنسى. تهتُ عنها خلف قطيع من الأفكار، إذ دارت عيناي في زوايا السقف وانحدرت إلى صورة بالية لوجهينا في غمرة مساء أبيض يتوضآن بلهيبه. تذكرت من تلك الليلة كيف أطلق أحدهم رصاصة فرحة لتستقر في يد أحدهم وكيف تم تأجيل الزفاف إلى منتصف الليل، يعود وجه خمائل ببلاهته غير الملائمة ويسألني أن أحتفظ بجسدي بعيداً عنها كي تهرب من طقوس تلك الخلوة.. لكنّني صمّمتُ على حقّي، حقّي الذي قال عنه أبي إمّا أن آخذه تلك الليلة أو لن يؤخذ أبداً، خلعتُ ملابسي وتردّدت هي في أن تطيع وانتهت الجولة الأولى حين سافرت خمائل دون رغبة منها ثمّ تكرّر السفر دون رغبة منّي. ذكّرني وجهي القابع في تلك الصورة بالمزحة التي كان يردّدها هاشم حين يؤكد على أنّ ليس ثمّة مقارنة بين جمالها ودمامتي وتلوذ هي خلف حياء باسم حين تسمع كلماته لمّ ترمقني بنظرة غامضة وكأنها تحاول أن تكتشف ما لم تره في وجهي بعد.

كانت تغطّ في أحلامها، أحدّق بجسدها الذي يتوسد بركة الذكريات الغالية، تبيئني التفاصيلُ بكثيرٍ من الهوامش والألغاز والأوقات المسعورة. كلّ جزء من تلك الأجزاء الرابية والمنخفضة والمدفونة بين بين له في هذه اللحظات أن يسرد ما لا يحصى من الحكايات والقصص المائتة وأمضيتُ وقتي أتأمّل خمائل... أتفحص الانحناء الخلفي من وراء الملحفة التي حاولت جهدي نزعها عن بعض الأجزاء الضرورية دون جدوى فقد كانت تعيدها إلى وضعها في طرفة عين.. واستولت عليّ رغبة في أن أقبّلها في موضع ما ولكن الطريق لم يكن متاحاً واكتفيت بقبلة حذرة على ساقها اليسرى التي كانت مكشوفة بغفلة منها. في الصباح استيقظتُ ولم أرَ خمائل في السرير. كنتُ أشعر بنحو من السكينة والهدوء النادر. كانت أحلامي؛ التي تركتُ آخرها للنصف؛ خمائلَ وباقةً من الأغنيات. قاومتُ رغبة

عظامي في البقاء تحت ملحفي الدافئ فتحتُ باب الغرفة الذي أغلقته خلفها وبحثت عيناي عن ملكة الصباح كي أعزف لها مقطوعة باهرة من الأشواق قررّتُ أن استلهم ألحانها من صباحات ماضية عسى أن تتذكرها الآن. تُرى هل وضعت خمائل أحمر الشفاه اليوم؟ وهل كحّلت جفونها الناعمة ؟ وأيّ ثوبٍ انتقته من أثوابها الثلاثة المتبقية التي حافظت عليها من هدايا العرس ؟ خرجتُ إلى الفناء وامتلأ أنفي برائحة الشبّار التي رسمت لي خارطة من اللهو الساذج لطفلٍ يتقمّص دور أحد كلاب السينما. خطوتُ مغمض العينين في الممرّ الجانبي من الدار، وفتحتهما عند نهاية البلاط الأسمنتي القديم.. لم أرَ خمائل هناك. كانت التنور الطينية وحدها مفروسةً في تلك البقعة الموحشة. إذن لم تكن بحاجة إلى الخبز ولا شكّ أنّها ذهبت لإحضار طبق القشطة العربية، وعدتُ إلى التفكير بالمال الذي تنفقه زوجتي هذه الأيام والذي أنفقته طوال فترة الاعتقال فقبل أن يقتادوني معهم كنت قد أتيتُ على المبلغ الذي صرفته الشركة كحوافز شهرية ولا أذكر أنني تركتُ في جيب قميصي الذي بقي بريئاً خلفي سوى ألف دينار وفاصل الأسبوع الذي حذفوا أسمي بعده من سجلاتهم كان ضمن الشهر الثالث فمن المؤكد أنهم لم يصرفوا لها شيئاً.. لم أسألها كيف تدبّرت أمرها خلال الأشهر الماضية.

لم تشرق الشمس ذلك اليوم.. ولم تعد خمائل إلى البيت. فكّرتُ عند الظهيرة أن أخرج للبحث عنها حيث أحتمل وجودها. لكنني لم أفعل. لازمتُ الفراش وظللتُ أحدّق بتلك الصورة الصامتة إلى أن طُرِق الباب.

-3 -

في مكانه المفضّل على ذلك البساط المنهك الألوان جلس ونفض رماد سيجارته. صمته جعلني أنظر إلى رجلٍ كريهٍ يشبه أولئك المردة حين يتأهبون لأجراء التحقيق. لكن اللحظات الأخيرة من صمته هذا راكمت له أكثر من وجه.. وجوه لا أكاد أعرفها لهاشم رغم أنها تلتقي في بعض تعابيرها وملامحها مع ما كان عليه في أول لقاءاتنا قبل أعوام. فكرتُ فيما يريد قوله مرّتين دون أن يكرر ألفاظه. كان صمته ودخانه وعيناه الزرقاوان تختلط اختلاطا غريباً أمامي. بدت لي كأجزاء مترابطة لا يستغني أحدها عن الآخر، فلا يمكن للصمت أن يكون بلا دخان ولن يتلوّى الدخان إلاّ أمام عينين زرقاوين تترقرقان بالصمت. مضى وقتٌ مبهم قبل أن يسألني عن خمائل. قال بلهجة بعيدة عن التحقيق:-

- لا أرى خمائل في المنزل؟

وأجبته بطلاقة معتوه يدافع عن مخاط أنفه الذي يسيل على شاربيه:-

- مضت إلى أحد أقربائها في الحيّ، سوف تتأخر قبل أن تعود.

فاجأني بغضونه المكتئبة. ورأيته يقف واضعاً يديه في جيوبه ليختصر كلّ ما في خاطره من جملٍ وأفكار بقوله:-

- خمائل عند والدتها بانتظار ورقة الطلاق..

هويتُ بآخر ريشةٍ من جناح كبرياء مهشمة، أحدّق من تحت مهبّ اللحظة بشظاياها المندفعة فوق رأسي.. انطمست معالم وجودي وأصبحت كائناً دون حواسّ دون أعضاء.. دون أقدار أخرى تخترعني. تفوهت بكلمة خائبة:-

- لماذا؟

وأجابني من فوق صهوة جواده بأنها لم تفصح عن سببٍ ما خلال محادثتها إياه عبر الهاتف وكلّ ما طلبته أن يبلغني بقرارها. ثمّ استأذن للذهاب. كان دخان سيجارته ما يزال يدور في فضاء الغرفة، خجلت أن أسأله سيجارة واحدة وتمنّيت لو كان بمقدوري أن أجمع تلك الذرّات الدائخة التي تركها واعبّئها في جوفي، لعلّ رؤيتي للأشياء من حولي ستكون أكثر وضوحاً. أتساءل لماذا تطلب خمائل الانفصال مني؟ هل أجهل حقاً دوافعها والأسباب التي تصرع صبرها؟ أليست هي تلك المرأة الملعونة التي لا تريد لجنونها أن تنطفئ فوق رمادي البارد.. لا بدّ لها من ذروة تمارس فيها أحلام جسدها المهووس. لن ترتجف على ضفاف عجينتي المتكلسة ولن تهب أيامها لسماع أجراس كنيستي المهجورة. كنتُ أترنّح بين أفكار وصور باهتة، أدقق في مساحات تلك الدوائر التي تضرب نطاقاً من حولي لعلّي أجد شيئاً حاصرته معي، لعلّي أظفر بفاصلةٍ تغيّر من الثوابت المطلقة التي تمتدّ على طول الوعي وعرضه.. كان لي أن أحتفل بهزيمتي، أن أصطنع لهذا الصحو جنوناً لتستقيم الجهات ولتتوازن أبعاد اللعبة. أنفجر بضحكة خَبِلة في وجه الجدار واصفع ظلّي فوقه. لماذا تطلب الطلاق؟؟ لأنّي لم أعد لها بكاملي. سرقوا نصفي.. ثلاثة أرباع وجودي، وهاهي خمائل ترفضني لا تريد إلاّ حقها الكامل.. فمن يعيدني أنا ثائر مجدول إلى زوجته خمائل؟؟

تسلّل الليل إلى منزلي وأشرع الأبواب والنوافذ لـوّثني بسحنته القاتمة وجمّدني كقطعةٍ منه. لم أقوَ على أن أمدّ يدي لأضغط المفتاح الكهربائي لإشعال المصباح، لو بقي هاشم معي لتعاونّا على هذا المارد الجديد لكنه أسرع بالذهاب وكأنه قد فعل كلّ ما كان يجب أن يفعله لحق الصداقة التي بيننا. ويقابلني الشيخ راضي وأبو بلقيس، يتجادلان حول القضاء والقدر

- كلاهما غير محتوم

- إنّما القضاء وحده.

- لا تفكر بل تنقل أفكار الغير
- لهذا الغير عصمة ليست لي.
- للعقل أن يتدبر ويصل إلى النتائج.
- ليس له أن يسع المطلق.. إنّه كائن محدود القدرة.
- لكم تضحكني يا شيخ...
- هذا لأنك لا تؤمن.
- من قال هذا.. هذه مجرد مؤامرة ضدّنا .

لن يخرسا ولن يكفّا عن غزوهما الأحمق لجمجمتي إلاّ بهذه الصاعقة التي حلّت قريباً من بيتي.. ثمّ سمعت صوت المطر.. تصالحا على شكّ واحد

- شيخ راضي هل تسمع الصوت؟
- أجل.. ما هذا؟!
- أظنّه صوت المطر.
- كيف؟ ألسنا تحت الأرض؟ فوقنا ثلاثة طوابق...!!
- لا أدري ولكن من المؤكد أنّه المطر.
- يبدو ذلك بالفعل.
- ها ما تقول.. أسمع جيداً..
- إنّه صوت المطر.
- صوت المطر.

وأتتني رائحته من النافذة ليريق أمامي ذكريات غامضة عن طفولتي.. ما السرّ الذي يجعلني أتذكر طفولتي حين يهطل المطر؟ ولكن ما الذي كان يذكّرني به وأنا طفل؟ ربّما بجفاف سنوات العمر التي أتت فيما بعد.. ربما. وهذه الظلمة التي كانت تفزعني كيف أمست الآن معشوقتي الأثيرة؟ كيف جرى مثل هذا التحوّل الرهيب.. لكنّها حقيقة تؤمن بها ذاكرتي إيمانها بالقضاء والقدر. وهاأنا ذا أساكنها، أتأمل في لونها الأبديّ.. في صمتها الخالد الذي لا

تخلو منه الكلمات هي هي لم تتغير منذ كانت. تلمّستُ طريقي إلى الفراش. لم أغلق شيئاً ولم أفتح شيئاً سوى فمي.

في الصباح التالي أيقظني صوت قرقعة الأواني في المنزل. كنتُ استمع إليه وأنا أقدّر أنه آتٍ من غرفة المطبخ. إذن عادت خمائل.. عادت مبكرة لتتلاعب بوقتي، تدّعي أنّ الزمن أخترع أمامي ظلاً لا وجود له. لكنني سأصدّقها حتماً وأعدّ أيامي كما تعدّها هي على أصابعها مرارا عدة. انتفضت كالمخبول وجريت باتجاه المطبخ وهناك لم أرَ خمائل، رأيتُ مخلوقاً آخر لا يمكن أن أعشقه. كان الكلب الأحمر يلوغ في إحدى الأواني الرطبة. لا شكّ أنّه كان يسرح ويمرح طوال البارحة إذ أنني لم اقم بإغلاق الأبواب تركتها مشرعة كلّها دون اهتمام. انسحب الكلب وأقعى بجانب الباب الخارجية وهو يتجاهل هيكلي الذي يتحرّك أمامه. السماء لم تزل ملبّدة بلون وجهي، تتراكم السحب كحيرتي هذا الصباح. خرجتُ إلى الخارج وتركت ثيابي تبتلّ تحت المطر.. أرتجف إلى أقاصي الإيمان بمذلّتي.. أشعر كأنني أقدم على تضحية ما في سبيل خمائل. هل ستعود زوجتي أيّها المطر؟ هل ستعود خيمتي الدافئة؟ أين تلك الموجة التي ألهمتني فجور الحسّ وتقوى الأمنية؟ لا أحتمل غيابها ولا أطيق النظر إلى عالم ليست هي مكانه وزمانه وصورته. أخذت صمتها وضجيجها وغادرت، لتتركني في هذا البهيم الدامس في ثرثرة الفراغ الذي يبادلني الحقد والغيظ. تُرى ما الذي جعل منها أفعى ممسوسة تنهش من ورود مجاعتي تغتال عطر مواسمي التي أفعمتني بدفئها؟؟ أيمكن أن تتوب هذه المارقة عن قلبي؟ ولمَ لا؟ أنا من سيختلق لها أعذار إبليس ويصفح عن نفسه كي يدخل جنّة الله التي أعدّ لعباده العاشقين.. كم كنتُ مُنعّماً وأنا في قبضة محاجرهم، أنتظر لحظة البعث والنشور إلى عالمها، عالم خمائل المطرّز بأغاريد الحور ودبكات الملائكة. أتنقل بين طبقات أشواقي إليها، وأسمّر في خاطري صورتها التي تتبلج في

أحلامي وفي نزّهات يقظتي. من يصدّقني حين أقول إنّني كنتُ أتشهى على وجه خمائل وأنا أغطّ في أعنف لحظاتي هناك حيث يبدؤون هوايتهم بي وأنا معلّقٌ بين الموت والموت، بين غيبوبة الأرض وغيبوبة السماء. لا أكاد أعي ما يجري الآن، ذات الشعور الذي سكن دواخلي وهم يزجّون بي أمام غول التحقيق ويردّدون: لن تعود.. لن تعود .. لن تعود أيّها الفتيل الذائب.

سمعت الكلب وهو ينبح، رأيته وهو يحرّك ذيله. ربّما استشعر وجود أحدهم قرب الباب. أيمكن أن يكون النباح وفقاً من الأوفاق السحرية التي تمارس الجلب، ثمّة مقاربة واضحة بين الكلب والجلب، لعلّها حقيقة الوفق الذي سيحلّ عقدة هذا النزاع العصيّ. وسّعت من فتح الباب لإخراج رأسي ونظرت كسارق يبحث عن طريق أعمى للهرب. لا أحد أيّها الكلب المعتوه، لا شيء سوى الطين وآثار الأقدام والكلاب. لكنه عاود النباح ثانيةً وقرّرت ألاّ أنظر ولو كانت خمائل على مبعدة خطوة واحدة. لن أستقبل ملكتي بنباحه القذر.. واحدّق بوجهه، ليس وجه كلب هذا الذي أرى، انّه واحد من أولئك السفلة المأجورين الذين كانوا يسحبون الجثث من غرف التعذيب ويرمون بها في الزنازين. كم مرّة كوّم جسم أبي بلقيس والشيخ راضي، وكم مرّةً فعلها بي.. لا شكّ أنّها كانت بعدد تلك الليالي الآثمة ليالٍ مأجور سافلة تجتهد في خدمتهم. ساكوّمه الآن مرّة واحدة في قبالة تلك المرّات وفي هذا الصباح الذي يشبه الغروب. بحثت عن آلة تقاسم مهمتي، عثرت بعمود من الحديد مطليٍّ بطلاء أحمرَ لتتفرد المصادفة بلونها القدريّ الذي يجب أن يكون. اقتربت منه بخطوات هادئة كان ساذجاً حين طأطأ رأسه النتن ورفع حدقتيه إلى مستوى قلبي من نبحة كالسعال.. لن أبذل قطرةً واحدة من بحر شفقتي لوجه هذا اللقيط. لقد توسّل به الشيخ ذات ليلة أن يترك تلك الملحفة التي أتم جامعاً فيها أوصال أبي بلقيس لأجل أن يبقى المسكين غافياً على جروحه، لكنه أبى إلاّ أن يسحبها من تحته ليدحرجه إلى الأرض

ويزيده ركلةً على خاصرته. رفعتُ العمود الحديدي وصعقتُ به يافوخه لتتقذف جثته في الهواء ثمّ تهوي إلى الأسفل وتقع على مبعدة من مكانه هناك. سمعتُ صوته أخيراً.. صوت امرأة تصرخ في محكمة لبقايا القصور. يتلوى في الطين وتلبسه الأرض، تستعجل لحظتها هي الأخرى. كنت أرفع العمود متباهياً كلّما خطفت عينه أمامي.. ليبقى يقاوم بصوته المدبّب النشاز، يحرّك أطرافه الأربعة ويرفعها مراراً إلى رأسه وكأنّه يبحث عن طريقة للتخلّص منه. ثانية يرتفع العمود في يدي ويهوي على ذات النقطة التي تركها. ويئنّ الأبله أنين امرأة يغتصبها حشد من قطاع المُدن، تموي تحت شهوتهم المجنونة. تدفق ميزاب الدم من رأسه وسال على بوزه الطويل وما ينفك يضرب الأرض بأطرافه لكن صراخه بدأ يخبو. للوحوش طريقتها في الموت. فهي تكاد تفترس نفسها حين توقن بأنها لا تقوى على افتراس القدر الذي يخترمها. سكن للحظات، خلتُ أنه قد فارق جثته الموبوءة إلى الأبد، لكنه كان ينشغل بمقاومة عابثة.. أردفت له ضربتين أخريين وأخرجت دماغه الذي كان يفكر بي، لن يقوَ بعد هذا على أن يفكر بي. كان علي أن أكمل اللحظة إلى آخرها.. اللحظة التي ادخرت في خزائنها ما يكفي لمسافة آتية. لا بدّ لي أن أضع تلك الجيفة في مكان لا تصله إلاّ يد الله. وأن أدشن مقبرة ربّما سنأوي إليها جيف أخرى. يجب أن تكون لي مقبرة جماعية خاصة. فكرت أول الأمر أن أحفر بالقرب من بركة الدم لكنني تذكرت أنهم لا يمارسون القتل والدفن في مكان واحد إلاّ نادراً؛ فابتعدت عدّة أمتار قبل أن أبدأ بتشكيل عالم جديد.. عالم أخلع عليه زمني المركب من لحظات ثأري المتوالية، أرصفها على طريق ملوّنة باللون الأحمر الذي يعشقه هؤلاء. كان المطر يهطل بغزارة، أكملت عملي وجلست تحت سقيفة من التوتياء في جانب الحديقة المفترضة وهي محض تلك المساحة من التراب التي تتوسطها الآن مقبرة صغيرة ستخلق الزمن كما خلق المسيح طيوره بإذن الله.

-4-

لماذا يتواصل هطول المطر؟ كنتُ أسأل نفسي عن هذا العسرّ الغريب الذي يقف وراء هذه المماأة. لستُ غبيا إلى تلك الدرجة كي أطرح سؤالا لا أعرف لجوابه مكانا محتملا في ذهني ولا لمخبئه نوعا أو وصفا يميزه عن غيره. فلأول مرة تبعث لي السماء عذرا بهذا الحجم من التضليل والتزييف. ساجد ما أقوله بثقة لخمائل حين أضطر لاعتذاري عن عدم الجري وراء خطواتها الهارية العابثة إلى بيت والدتها. كنتُ أشعر تلك اللحظات التي قضيتها مقرفصا تحت السقيفة بنشوة من الهدوء وألمس في نفسي مساحة من الرضا تكفي لتحويلي إلى صنم يراقب ضجيج الطبيعة من حوله. صنم بشري.. بشري، وثمة فرق هائل بين أصنام الحجر والبشر. فاللحظة التي يكرر خلالها المرء سؤالا عن سر مبهم هي اللحظة التي تحيله إلى صنم. فكرت أن أتحرك إلى داخل البيت، أرتمي هناك بين أحضان ليلة بلا خمائل كواحدة من تلك الليالي التي حرّقتني، أوّلتني إلى مقاطع مهذبة من الثلج تواصل ذوبانها على مساري الضائع بين الأدغال والترهات التي كان يمجدها الشيخ راضي وينسجها بحكمة بلهاء كي تتوحد كلّ الأشياء في هذا العالم وتتماهى في بعضها البعض صاعدة إلى طوبى، إلى حيث نعلّم الجلادَ معنى العدالة ونضرب له أمثالا رائعة حين نحكم نحن هناك. ولكن... لقد طلبت خمائل الطلاق.. الطلاق... أي أنها لن تعود. ارتعشت الجنة وتزلزل العرش، أي تاج هذا الذي أشعر بثقله فوق رأسي! وأي سوط يتلوى بغضبي على بلاط الحق الأبدي! يا لهذا الطعم الغريب الذي يمتزج بكل قطرة من لعاب الظهيرة. كان ظلمهم أكثر عنفا وأشد قسوة لكنني لم أتوّج بكل هذا الاحتراق البارد ولم يستحل غضبي إلى سوط يمريد بيني وظلي الواقف على مشارف

طويلا مخنوقا بظليمتي.. أتلاشى كمخلوق ثلجي على مهل. يا لقسوة خمائل وعنفها.. لم يدر في خلدي أنها تملك كلّ هذا الجبروت والقهر لتحيلني إلى أصفر ما تقع عليه العين وتقلبه أعواد التحري التي يتلقفها الأطفال. كنتُ ابكي مسحوقا بهزيمة ألف معركة استوعبتُ خسارتها في لحظة واحدة. عند العصر انقشعت السحب وعاد هدير الطيران إلى الأجواء، بضعة عصافير خرجت تبحث عن بقية يومها في مكان ما، لكن أصوات الانفجارات التي تولدها المدفعية المقاومة للطائرات كانت تبعثر هذه البقية الباقية وتلقي بها في صحراء بعيدة لا تقوى العصافير على الوصول إليها.

جلستُ أصغي إلى هذارم جارتي وهي تنشر مقتنيات البيت المبتلة على الشرفة. ربما التقت نظراتنا صدفة لكنني لا أعرف لمن كانت سبابها المقذع تلك اللحظة التي ابصرتُ خلالها خصلة من شعرها المنفوش ورقعة صغيرة من صدرها الذابل. رفرفتني فكرة حمقاء واستهوتني رشاقة أيام غابرة حين ذهبت أنبش في تراث مواقعي وأقلب أوراق تركتها عذوبة المراهقة في أوكار شيطاني الصغير المخبوء في زاوية من زوايا غرفة مهجورة في الدار. بحثت طويلا عن صندوق قديم عبّأته الأيام بذكرياتها.. نبشت وقلبت عشرات الأوراق، رسائل معتوهة إلى فتيات المحلة.. مفكرات لا تحمل غير خداع نزيه مع الوقت.. شهادات الصفوف الأولى من دراستي.. مدالية تحمل صورة إحداهنّ والتي لا أعرفها الآن... وأخيرا عثرت بتلك الحزمة الصغيرة من الصور، تفاصيل القمر الأبكم لحواء، أشكالها الهندسية اللذيذة، الوان الثمر المغرية.. ولكن ثمة شكلٌ أذكره.. أذكره تماما فها هو يعيدني إلى أسمين، وردتين بذات العطر واللون. ذكرني بأني لم اكن أشبع أمامه يوما .. بل يزداد الجوع قسوةً وضراوة. من أين كان لي أن أتناسى أنّني أملك كفيري ما أودعه الله في صلصال أبي؟ كنتُ مؤمنا بأنني لا أشبع بتلك الطريقة التي تمزج مع يُتم رغباتي

ونصاعة هذه الذاكرة الملونة التي تفترسني صورُها المدمجة في قرص ليزري يثقب بأشعته الغامضة كلّ لحظةٍ تمرّ من شريط مهزلتي. يقرؤني سطوراً من الأرقام التي لن يبلغ عدّها شياطين الأرض. يرتّب بؤسي ترتيبه للمسرّات والسعادة التي يغنمها الآخرون بأقلّ عدد ممكن من الدورات .و عندما كنتُ أسأل تبصق الـ "متى" في وجهي، يشتمني السؤال حين يغدو على مبعدة جمل عديدة من الهذيان ترتع معي بين هذه الجدران ذاتها التي تحتضن آباداً اخترعتُها ساعةً أشرقت على قاعها المحل شمسُ أمل التي نادتني من النافذة ذلك الفجر. أعرف تماماً أنّ الأرض قد سُرقت من تحت قدميّ وبقيت السماء تنظر إلى أرضٍ أخرى، أرضٍ ليس لي أن أصلها حتى يقف كلّ شيء عن الدوران. كنتُ أشعر أنّ ثمّة خياراً في جعبتي، أهدّد به في طيش كبرياء قاصرة عن تعلّم لغة التعبير عن الذات، ألوّح به أمام ظلالي التي تحتشد في ركن مفضوح من زنزانتي التي اخترتُ مكانها ووقتها ودرجة الضوء في زواياها وأركانها. وبقدر ما يصفّق الليل للكنتي ويجمع أطرافه إعجاباً بلسان تتزلق بعض الكلمات عليه إلى الوراء، كان الصباح يأتي ليسخر من فصاحة أحرفي، يقذفها الواحد تلو الآخر في مجرى آسن لصحوة الأسئلة المريرة التي لن تجد الجواب ولو اتخذت لها سلّماً في السماء. نعم أذكرها إنها أمل .. هي التي أعطتني عريها الجامد ولونها المترف، قالت إنها هدية، متاع الوحدة العابرة إلى أجلٍ معلوم. رافقني متاعها إلى أن ارتديت البزة الخاكية الملونة وعندها جاءت زهراء التي أهدتني هي الأخرى ذات المتاع. كنتُ صريحاً معها قلتُ لها يوماً برجولة واثقة: لم أشبع ..إنه العبث .. ماذا يعني أن أتطلّع إلى من يلتهم جسده في نشوة الامتلاك..! ماذا يعني حين أزجُّ بظمئي فوق أخشاب طافية على البحر ! ما الذي يسقط في جوفي عندما أتأمل تلك الأغوار وهي منشغلةٌ بكوثر وجودها! وبعدما هربت من الجيش لأشهر عدّة كنت أسائل العته المزمن عن شكّي، كيف

له أن يمتصَّ من الألوان المطبوعة يقيناً دون أن يعلق لونٌ واحدٌ به ؟ كيف لي أن أرسم وجهي ويدي والنصف المتشرِّد بين كلّ هواجسي وقلقي من حاضر هربتُ من لون بزّته الخاكية! كيف أطرح نتاجاً دون تلك المراحل المتلاحقة من زمن اللعبة؟! لا أشبع .. ولن أشبع بهذه الحماقة. لابدّ من يدٍ تمتدّ صوب المائدة لتأتي بالطبق الذي سرقوه وأتذوّقه بلا مجازات حسيّة. طبقي الذي كنتُ قد رأيته في جواري.. بين خطوات النهار الذي كانت تتهمر فيه أمل وزهراء على سياج بلاهتي.. في تلك العُصبة من الخلاعة التي يفركها النوم والهواء – قبل أن تستقلّ بها أصابعي آنذاك - وأنا أفكر أيّهما الذّ.. أمل أم زهراء! كلتاهما ترتديان شقرة الأحلام وتبذخان بنداوة المرح. كلتاهما فتحتا لي طريقاً لا يطلب سوى جواز عابر لإعطاء السفر حرفه الأوسط كي لا يكون سرّاً ممقوتاً لا بركة فيه. تُرى هل لهما أن تفكرا بي الآن بعد أن اختفى شبحي القديم الذي كان يقف فوق سطح المنزل، ليزجي من هناك موعداً واحداً لهما في نفس المكان باعثاً ببطاقة التفضيل لزهراء على حساب أمل ثم لأمل على حساب زهراء. ثم... يتراخى الوقت .. هكذا بكلّ ما تحمله الأشياء الخاطئة من دلالة متراخية، لتأتي خمائل وتحزم أرجاء السماء والأرض. تلقي القبض على أمرد الشياطين الصائلة في عروقي وتأمر الأشكال أن تتلاشى أن تختفي الأسماء والألقاب وألفاظ السطوح المستوية وإشاراتها الغامضة والواضحة. بلغتني حين كنتُ قمةً شاهقة بين قمم الفوارس التائهة في تقاطعات الطرق وأفواه الأزقة. والآن... أيها الأمس المقطوع، أيتها القطعة البائسة.... هل أيقنت بأن ما كنتَ تضيق به وتتأفف من خوائه أمسى غاية الثراء الذي لا سبيل لاستعادته..؟! ولكن خمائل لم تغب، ما زالت تشرق في مكان ما.

رصفت تلك الصور على الأرض وتعرّيتُ أمامها. بصراحة لم تكن لي غاية ما من رواء هذا الرصف والتعري، لم أعِ ذلك الفعل المزدوج ولا

الرابط الفني بين الأمرين. كنتُ أختال ببقايا قد لا يرتضيها ذوق الرجل، حاولتُ التوقف عن تلك اللعبة التافهة الغير ذات معنى بالنسبة لأغلب أعضائي النابضة. لكنني أمضيتُ وقتا طويلاً هناك حتى أفزعتني طرقات عنيفة على الباب الخارجية. لملمتُ كلّ تلك الأشياء المتناثرة كما كنتُ أفعل قبل أعوام حين تطرق والدتي الباب لتتكد عليّ مراسيم الخلوة التي كانت تعرف تفاصيل تأديتها معرفة دقيقة استخلصتُها فيما بعد من نصائحها التي طالما تعاقبت على أمسياتي وبعض صباحات العطل الدراسية. خرجتُ من تلك الغرفة المهجورة وأنا خالٍ تماما من أيّ فوضى تذكر. لم يدر في خلدي أنها من أغرب اللحظات التي مرت بي ذلك اليوم. كيف صفوت ومحمت وأعيد ترتيبي بشكلٍ فارغ لا لمسة فيه للشياطين والمردة! نقلتُ خطواتي بهدوء وسرتُ إلى الباب مطمئناً وأنا أنظر إلى تلك الأقدام الثابتة خلفه. فتحته على مهل لأتسمر في ظلها، ليس وهما ذاك الذي يُنسج في ذروة الإحساس بوجودي... إنها خمائل.. خمائل بطولها الممشوق ووجهها الحليبيّ الرائق وملامحها السوداء... لقد عادت بعينيها اللتين تهدران كالبحر، خطوت نحوها بتراث من الأحلام المتبجحة بنبوءتها. أحتشد على مبدى الثراء الفاحش لهالتها .. انسكب إليها زقزقة لطير الله في جنته الموعودة ويصلبني خشوعٌ فاره لأجزاء ولني الذي يعبدها... أخطو إليها مأخوذا بكلّ ما يحرّره الوعي من معاني خمائل من أسرارها الناصعة التي تدهشني في تلك الفسحة من التركيز، من لهيبها الذي يوقد بي هلوسة لفاجعة أيام مطفأة مرّت دون أسماء وتواريخ وفواصل. وقفتُ عند نهاية الأفق لتقابلني شمس خمائل، يختلف منظرها قليلا وتتفاوت عدد خيوطها الملونة، لكنها هي... كم ورقةٍ عادت إلى غصونها خضراءَ يانعةً من رصيف الموت! كم نهر تلاحقت غواربه بعد جفاف بهيم لقرون من ظمأ وكم حقل أخرج شطأه في بور لم يحتفل أحدٌ ببذارها وكم ثائر مجدول خُلِقَ تلك

اللحظة أمام إبليس ليسجد له طائعا وينفخ فيه من روح خمائل ما يقنعني بخلافة مرتقبة لا تُغتصب!! ترتسم على وجهها ابتسامة وتسقط في روحي كلمتان مبشرتان بالجنّة:

- صباح الخير..

أي لفظة تلك التي تصلح ان تكون رداً مناسبا لتحيتها؟ أي لغة تصمد لتحبك لها معنى مفهوما امام شهاب ثاقب يخترق الكون إلى آخر ومضة من ومضات أسراره.... انى لضجيجي أن يرتّب مقاطعه العصية.. أن يرفع سلالمي إلى ربوة معقولة لجرأة مثولي في حضرتها؟! صمتُ ولم أجب. آثرتُ أن أكتفي بابتسامة خدشت صفاء المشهد بلا شك واربكت زوايا ظله الناعمة. تحجرت على بعد شهيق واحد من زفيرها. كنتُ اتمنى أن احتضنها واضمها إلى صدري لولا ان هاشما انغرس بيننا وهو يغني بلا صوت إحدى مواويل اللقاء الريفيّ المشهورة ثمّ وضع يده على كتفي وقادني بعيدا.. بعيدا عنها ليهمس في أذني:

- عاملها بلطف يا رجل.. إنها امرأة خلابة ورائعة، لقد اقتعتها بالعودة ضامنا لها انك لن تقسو عليها .لا تتخيل كم كانت وفية لك وأنت في السجن.. لقد عملتْ المستحيل لإخراجك ولكن... ثم ما تريده الآن هو لمصلحتك.

وهززت رأسي الدائخة المائجة موافقا ضامنا لها أقصى درجات اللطف البشري الذي لا اعرف غيره لخمائل. لم أقل له أنك تفتري فرية كبرى وأنني لم افكر يوما بان أنغص عليها لحظة واحدة من حياتها معي. وبعد عودتي.. أي لطف هذا الذي تطلبه مني! متى أزعجتها بشيء وأي قسوة تلك التي صدرت من كفي الناعمة تجاه زهرتي المدللة!!

تناولنا وجبة الغداء بحضوره. كان يخرج بين الفينة والأخرى لمراقبة سيارته خوفا من عبث أطفال الزقاق الذين طالما وصفهم بأبناء الغجر. اقترح كعادته أن نستبدل بابا واسعا بهذا الباب الذي لا يكفي حتى لولوجه هو إلا بعد نصف دورة لكرشه لكي يتمكن من إدخال

سيارته وحمايتها من عبث الفجر. أضاف اقتراحات أخرى لم أفهمها وكنتُ أومئ موافقا بطبيعة الحال فقد كنتُ منشغلا بشيء أكثر أهمية. كنتُ ألاحق بعينيّ خمائل أنّى وضعت قدمها أمامي. أتأمل جوانبها الساحرة وزوايا بذخها التي أكاد أجزم أنني أبصرها لأول مرة. لم أعرف سرّ الحياء الذي غشيني فقد كنتُ كضيفٍ غريب لا يملك أن يطلق العنان لتصرفاته وحركاته ... أما هاشم فكعادته كان يتجوّل كيف شاء ويختبئ عني أينما شاء في منزلي، وكانت خمائل تختفي معه أيضا في المطبخ تارة وفي الفناء الجانبي تارة أخرى فيما أظل أنا أنسج خيوط المساء القادم ... الليلة الآتية بعد ساعات .. انتظر اللحظة التي يطلق هاشم فيها وداعه ويستأذن للذهاب. كان عليّ أن انتظر وقتا أطول بعد أن اكتشف عطلا غجريا يسيرا كما وصفه قد ألمّ بسيارته.

انصرف هاشم في الساعة الخامسة والنصف ولم يتبقّ لموعد ذهابي لعملي الجديد سوى ساعتين.. ما الذي فعلته مع خمائل تلك الساعتين... ستضحك شياطين الكون كما ضحكت خمائل، ستحدج أحرفي بكل ما تملك من سخرية كما فعلت خمائل، سيلوي الشيطان والملائكة وما في السماوات والأرض أفواههم وشفاههم كما لوتهما خمائل وهي تسألني عن معنى تلك الدعوة الهاذية إلى الفراش؟!!

- و ماذا يعني؟؟

كررت السؤال ولم أقل شيئا بالمرة. لم أقل لها أنه يعنيك، لم أقل أنه مجرد قطعة من الإسفنج امتصت كلّ رطوبة أجسادنا قبل عامين ونصف.. لم أتفوه بحرف ودفعتها بقوّة أمامي. كشفتُ ثوبها على حافة السرير وبعثرت كلّ مغرياتها هناك. ورحتُ ألقي بجلدي المدبوغ على بحيرة ساكنة.. هائجة.. مضيتُ في دقائقي المجنونة العابثة. تهزأ هي من مجاديفي التي تسفسط على مياه الوقت ويرتسم الضجر المرّ في

عينيها وهي تتابع ظلي الساقط على ضفافها. تسألني بألفاظ كريهة مقرفة:

- وماذا بعد؟

اللعنة على هذه البعد ، ذاتها التي كانوا يرددونها بعض الليالي حين يبدؤون بتهشيم جسدي على طريقة التقسيط المريح. يُطرح السؤالُ نفسُه وأجيبهم إجابة واحدة أجتهد في ان أنقل الأشياء بصورة صادقة أبالغ في ذكر أدق التفاصيل وأجمع كلّ نباهتي وقوانين الحديث اللبق التي تعلمتها ليقال لي في النهاية: وماذا بعد؟! بعد البعد هذه تتعاقب الصور والوجوه والأزمنة ، تحترق الأوراق وغصون غابات الرجال. كان رماد البعض يتحوّل أمامي إلى أبخرة فاسدة تختلط النقاط المرئية والخطوط ويموج الهواء.. يبدو له شكل ملحفة من الصوف. ثم تكتمني هذه الأشياء أو بعضها عن العالم او تكتم العالم عني لأغرق في نوايا الله معي.

دفعتني برقة مثيرة ولكنها حافظت على لونها الوحشيّ لأنثى آدم.

- ماذا تريد بالضبط ؟؟ إنك لا تملك....

وسكت الحق، بترت حقيقة الشمس الناصعة. وأدركت انني ملزم.. أجل ملزم ولما لا... بتقديم اعتذار لها ، للفراش الذي أزعجته دون طائل. مدين باعتذار للأرض والسماء وما بينهما ، لكل الموجودات التي فتحت عيونها تلك اللحظات الميتة .. عليّ ان اعتذر للملائكة والشياطين وحتى المردة . اقبل الأيادي واسقط جبهتي فوقها.. اطلب الصفح والغفران لأنني نسيت تلك "البعد" لم تخطر في ظلمة راسي.

خرجت تاركا خمائل وفراشها بذات البرودة التي جئتهما بها. كان الوقت ما يزال مبكرا لبدء أول واجب لحرسيّ لا يعرف كيف يمرّ الليل دون سقوف ولم يرَ لصاً في حياته ليفكر بالقبض عليه.

أوكلوا لي مهمة حراسة الشارع الذي يبدأ من حدود الحيّ الغريبة إلى حيث مقرّهم. شارع كئيب كهذه الليلة التي لم أجرّب الانقضاض

على سوادها. كانت أغلب البيوت هناك تزهو بأضواء المصابيح الخارجية التي تتلألأ في أطراف الحدائق المنزلية الداكنة. منظر يوحي بالثراء ولكنني أعرف بعض أصحابها. كنتُ أجدهم قبل أكثر من عام وهم يجتمعون في المقهى الوحيد في الحي يتشاكون من رداءة الحصة التموينية ويلعنون طائرات التحالف التي تقع صواريخها بين الفترة والأخرى فوق بعض البيوت في أطراف المدينة. كانوا يناقشون أمورا أخرى ذات أهمية ولكن بأسلوب واحد، أسلوب الحقيقة المسالة... نصفها الذي لا يؤلم كثيرا ويترك الباقي لأنه أكبر من أحجامهم. زوّدوني بسلاح الكلاشنكوف وصفّارة التنبيه التي لهوتُ كثيرا بها عندما أبتعدت عن المقرّ واحتضنتني الساحة الموحشة نهاية الشارع الطويل. لم يكن هناك إلا الظلمة التي تفتح شهية الرجل لملامسة جزئه الأسفل لهذا فكرت بإسقاط تلك المسافة من جولتي القادمة. أصدرتُ أمرا لنفسي بالعودة إلى المربع الأول فالمسألة في ذاتها أن أقضي الليل بالعودة إلى المربعات التي يجب ان احفظها عن ظهر قلب. لم يخطر شبح خمائل في ذهن يقظتي وبدا لي ثمة إحساس غير واضح يسيطر على مشاعري إلا أنه يحمل نحوا من العذوبة واليقين بأنني أرزح تحت جهلٍ بحقيقة ما تهمني كثيرا. ربما ليست المرة الأولى التي يداهمني فيها الشعور بأن للجهل مذاقا عذبا أحيانا. عدت أدراجي وأمام إحدى البيوت تناهى صراخ أحدهم إليّ، كان صراخ امرأة، امرأة تلاكد قيدا من نار وتعاند قدرا من الأقدار. لكن الصوت انقطع فجأة وعاد كلّ شيء إلى هدوئه كما كان قبل لحظات من تلك الصرخات. في أحد الأزقة الفرعية شاهدتُ زميلا يتكئ على سلاحه وأطلق صفارته ما أن لحتُ لعينيه. قررت ان امضي معه بعض الوقت وثمة قلق من ان تمنعه القواعد والقوانين والاوامر والخوف من أن يعتبر ذلك تضييعا للوقت وتهاون في الواجب يجر أوخم العواقب غير المتوقعة. لكن الرجل قابلني بدعوة للجلوس وأخذ قسطا من الراحة.

الحقيقة انها كانت اكثر من دعوى لنيل هذا القسط. كان مصباح كبير يتوقد فوق المكان ولمحت بساطا قصيرا مفروشا على الأرض. دعاني للجلوس وقدم سيجارة من النوع الطويل وهو يسألني مبتسما :

- هل ألقيت القبض على اللص؟

ثم انقلبت تلك الابتسامة إلى ضحكة مجلجلة قبل أن أجيب بأنني لم أرَ كائنا بشريا لحدّ الآن.

- لا تتعب نفسك فلا وجود لأي لص في المنطقة .. الحقيقة ان مهمتنا ليست القبض على لصوص فلا وجود لهم أصلا. اجلسْ..

وجلستُ بحذر لا معنى له فيما يبدو وكان لا بد لي أن أطرح سؤلا بدوري :

- إذن لماذا طلبوا حرّاسا ليليين؟

- ليحرسوا اللصوص..

وعاد إلى قهقهة مريبة بعض الشيء. لم أفهم في البداية كل ما كان يردده الرجل لكن نصائحه المتوالية جمعت لي بعض المقاطع المفهومة:

- اجلس وأرح نفسك من عناء المجيء والذهاب، اعرف أوقات حضورهم وسأنبهك إلى ذلك لا تقلق. كنت أراقبك منذ ساعة تقريبا وأنت تذرع الشارع إلى اقصاه وكأنك في استعراض عسكري.

كنت قلقا ومتشبثا بسلاحي خشية أن يأتي أحد المسؤولين كما تمّ تحذيري في مقرّ الفرقة الحزبية لمراقبة أدائي وعند التقصير تكون الخصومة من مرتبي الذي لا أعرف مقداره وإن كانت الشائعة تقول انه جيد فضلا عن تأكيد هاشم المتحفظ نوعا ما، بينما كان هو يشرح صدره باستمرار لسحابة بيضاء تدور في فمه. قال لي بتلك اللهجة ذات النبرة المتعالية التي بدأني بها:

- بالحق ماذا تفعل في نهاية الشارع هل كلفوك بحراسة العراء؟!!

- قالوا إن مهمتي حراسة الشارع بكامله من المقرّ إلى نهايته عند الطريق السريع

اشعل سيجارته الثانية مباشرة من عقب الأولى وجلس إلى جانبي بحركة سريعة ليفاجئني بالقول:

- أنت ثائر مجدول.. كنتَ في سجن المديرية.

- نعم

- بيتك في الطرف الآخر من الحيّ، منزل أخي يقع في نفس الزقاق لكنني قلما أذهب إلى هناك. قل لي كيف قبلوك في هذه الوظيفة أعني الحراسات إنها تابعة للفرقة الحزبية؟

- توسط لي صديق في الموضوع

- من؟ عضو بينهم؟

- أجل هاشم عيد

صمت وهو يواصل نفث دخانه قريبا من وجهي. بدا عليه شيء من الاستغراب بيد أنني لم أسأله عن السبب ولم يضف كلانا كلمة حتى خفت صوت هدير مدوٍ لإحدى الطائرات الذي استمر لبضعة دقائق أعقبه مباشرة صوت صافرة الإنذار وهي تعلن انتهاء الغارة رغم أن الطائرة لم تجتز حدود المدينة كما يجزم الوقت بذلك. عاد الرجل ليتحدث لي بلهجة مختلفة هذه المرة:

- يقال انهم اعتقلوك بتهمة الانتماء لتنظيم محظور واغتيالك أحد رجالهم؟

- أجل بتهمة اغتيال رفيق لهم

- أخي يعرفك جيدا أكد لي انك لا تنتمي لحزب ما .. بالحق ماذا وجدت في سجن المديرية هل حقيقة ما يقال عن وجود أحواض التيزاب؟

- لم أرها سمعتُ بها وحسب

- في المديرية؟؟

- قال بعض السجناء هناك إنهم هُدّدوا بها...

أردتُ أن أضيف شيئا آخر لكنه قاطعني بصوت خافت غير انه لا يحمل نبرة الارتباك، كان ذا سمة رائقة من الاطمئنان وكأنه شيخ يستلم مقاليد الحديث في مضيف من مضايف الجنوب .

- أنا لم أرها بدوري رغم انني أمضيت عاما كاملا هناك لانتمائي إلى حزب الدعوة. مجرد تهمة والله.

- الكلّ لا يدخل إلا بتهمة.. أمر طبيعي ومنطقي

بدا كلامي غريبا عني، لم اعتد مثل هذه المفردات لأديرها في حديثي. لكنها فيما يبدو أغرته بمواصلة الحديث والإنشداد إليّ كما تشدّ الرغبة العابثة إلى متاهة مرسومة في إحدى الصحف:

- لقد اعترفت تحت قسوة التعذيب بأنني انتمي إلى هذا الحزب رغم أنني لا احمل شيئا من أفكاره ولا يصلني به أي نوع من الصلات الفكرية والعقائدية حتى أنني لا أصلي... لكنما كانت لديهم شكوك فعلية بكوني انتمي إليه...

لم أصغِ إليه جيدا حين شرع يقص أحداث الليلة الأولى وكيف كانت ظروف إلقاء القبض عليه. كان تركيزي منفرطا تماما ورغم ذلك تبينت شيئا واحدا من خليط الألفاظ التي اكتظت في مسمعي ولهجة الرجل وحماسته في سرد واقعة الاعتقال. لقد كانت واقعة على غاية من الإثارة.. وربما سمعته يقول إنهم أطلقوا عليه النار فأصابوا أحد عناصرهم بدلا منه.

قاطعته بتركي إياه وهو يحتدم لذةً في رسم قصته بأسلوبه الخاص كغيره ممن يملكون قصصا مشابهة. ألقى خلفي كلمة شرسة في عتابها لي كوني أفسدت عليه متعة نادرة فيما يبدو.

لم ألحظ أي تغيير في الأرض ولا في السماء .. أي ليل هذا ؟ كيف تطاولت ساعاته إلى هذا الحدّ ! تتشبّث بالفراغ الذي يداهم أعصابي، بالبيوت والجدران، بالأزقة والصمت المطبق الذي يتذوق الأشياء على مهل. حتى الكلاب التي تمرّ بجانبي كانت صامتة لا رغبة لها في

النباح. كان ثمة كلبٌ أحمرُ يشمشم خلفي ينقل خطواته .تتبعني بهدوء معتال. طرأت لي فكرة صبيٍّ أبله، أيمكن له أن يحمل ثأرا... هل تجري الكلاب وراء الثأر! خيالات بائسة ولا شك من أين له ان يعرف أنني قتلت أخاه قبل ساعات. كثير من الناس لا تعرف من يقتل أخوتها أتعرف الكلاب ذلك!! ازداد السلاح الذي أحمله ثقلا مع الوقت وبدأت قدماي تختفيان من خريطة الإحساس. لم أكن لأشاء العودة إلى المقرّ لولا شعوري بالعطش والرغبة في قضاء الحاجة. ثمة لوحة من الوجوه الغريبة وجدتها عند عتبات حرمهم. نظروا إليّ في المدخل نظرات هازئة وتندّر أحدهم عليّ بما يطعن في صميم كبرياء المرء. تجاهلت كلّ شيء هناك سوى قدح الماء وغرفة نتنة صغيرة في نهاية الممرّ الأوسط من البناية وأسرعتُ بعدها إلى الشارع حاملا حبة من رمال خيبتي وسماء تنزف كرامتها المهدورة، إنه الخيار الذي ابتلعته لإرضاء خمائل وإعادتها إلى .. إلى أين؟ ها لقد تذكرت.. إلى الفراش...

ما زالت الساعة الثانية عشر لا يمكن لساعة المقر أن تكذب، فالوقت هناك أكثر جبنا مني .. ترى هل أقوى على إكمال حماقتي هذه إلى آخرها ؟ فكرتُ بالعودة إلى البيت والتخلي عن هذه المشقة ولتذهب خمائل إلى الجحيم لكنني عدلتُ بسرعة البرق عن هذه الفكرة المنكرة الآثمة والغبية فليلة صابرة أخرى كفيلة بان تجعلني حارسا ليليا ذا يوم مقلوب على الطبيعة ودون تكلف. عدتُ إلى صاحبي ووجدته بعد خطوات قابعا في نفس المكان وسيجارته في يده التي انتبهت هذه المرة إلى انها تحمل آثارا لا يمكن محوها لمقابس الكهرباء المصنوعة خصيصا لتشغيل الصمّ والبكم من البشر المعترضين على بشر آخرين. ناولني قطعة من الحلوى ورحت اتمزمز بها واقفا إلى جانبه

- في كلّ عمل تكون الخطوة الأولى اكثر صعوبة من غيرها وتلين الخطوات التالية رويدا رويدا ثم تتحول المسألة إلى روتين..
- المشكلة لستُ معتادا على هذا السهر الإجباري
- ستعتاد حتما لا تخف.. أجلس

وجلستُ، كانت نيته واضحة في إكمال سرد قصته وبدا لي خلال الدقائق التي سمعته خلالها أن تفاصيل عديدة من حكايته تشبه تفاصيل أشهري الستة. ذكرني بجميع من عرفتهم في السجن تقريبا بدءاً بطريقة حديثه ومصطلحاته السياسية التي تشبه كثيرا ما كان يردده الأستاذ ابو بلقيس وانتهاءً بجبريته التي تقترب من جبرية الشيخ راضي. احسست بشعور مخيف بعد أن اخذت كلماته تقتحم كلّ المساحات المحظورة والخطرة، وتساءلت في قرارتي هل أقدمت على زجّ نفسي بجريمة لا يمكن أن أنجو منها هذه المرة ..لا ريب انهم لن يكتفوا بقطع عضو واحد من جسدي بل سوف يقطّعونني قطعا صغيرة ويجمعونها في كيس ويدفنونه في أقرب مزبلة لديهم. ربما كان الرجل يحمل هموما سامية على حدّ ما كان يصف أبو بلقيس نفسه ورفاقه من المعذبين بسبب العقيدة والمبدأ ! كان الشيخ راضي اكثر مثولا امامي واشد حضورا بحكايته التي ما زالت ترنّ في رأسي.. والتي صاغها لي كنصيحة رددها ألف مرة ويزيد كلما كان يفرغ من صلاته فقد ابتلع الطعم في جلسة سمر عادية مع مجموعة من الأصدقاء حين جرّه واحد من أولئك إلى الحديث حول السياسة وانتقاد السلطة على طريقة تعاملها مع مجلس الأمن في قضية أسلحة الدمار الشامل. كلّ ما قاله الشيخ راضي في تلك الجلسة إن الرئيس لا يملك شيئا من تلك الأسلحة لكنه يحاول أن يتظاهر بامتلاكها الأمر الذي سيقود البلاد والعباد إلى التهلكة. وبعد يومين أثنين فقط وجد كلماته بحروفها لا تزيد ولا تنقص مدونة في أذهان المحققين وعلى أوراقهم في مديرية الأمن. "يأتيك المحذور من حيث تأمن وسوء الظن

عبادة في هذا الزمن* هذه حكمة الشيخ التي تندر منها الأستاذ أبو بلقيس وعلق بكونها تفتقد إلى الإيقاع الموسيقي لأمثال العرب.

لم ينقطع حديثه الذي واصله مستمتعا به ولكن الشك أخذ مني مأخذه بعد أن بدأت كلماته تتفوط على رأس الحكومة ويسيل برازها المقرف على وجه الرئيس مباشرة. اعترتني رعدة كتلك التي كانت ذلك الصباح الذي جاءوا فيه ونادوا باسمي متوقعا أن رصاصة أو رصاصتين ستستقر في رأسي .. امتزج الظلام امامي بشيء آخر... مارد عملاق مهيب رجلاه في الأرض ورأسه في السماء، مرعبة هي الأشياء من حولي.. أية أشياء ! لقد اختفى كلّ شيء... انحنى المارد الرهيب فوقي تماما ومدّ يده ليضمني في قبضته، تلاشى نصف الجسد وتجمد النصف الآخر. حاولت أن أستر المنظر بجفوني.. أسدلها بيني ووجه الموت، صرختُ بكلّ ما في الصراخ من دلالة على إخلاصي للرئيس، على ثقتي المطلقة بقراراته وآرائه وخطاباته وكلماته وحكمته وفنه السياسي وو. لكنه يشدد من قبضته حول نصفيّ، يأمر اليد والجفن واللسان وسائر أعضائي أن تتحجر فتطيعه دون تردد طويل. كنتُ في الأونة الأخيرة قد اقتربت من قناعة أن هؤلاء المردة مجرد نفخة كاذبة أحجام مزيفة سيما أنني خلال الأيام الأخيرة وقفت أمامهم وطاولت عنجهيتهم وتكبرهم، حسبتُ انني نلت من ذلك السرّ التافه الذي يمدّهم بحياة فخمة لا يستحقونها. لكن هذا المارد المهول أعاد الأمور إلى نقطة البداية وها أنا ذا أعود لأستجدي منه فرصة للبقاء فرصة للخنوع والبحث عن أفضل القيود التي يصطفيها الشرفاء في هذا الزمن المارد. فجأة قذفني بعيدا... طوّح بجثتي واختفى كعادة المردة المحترفين. سكنتُ على تلك اللحظات الأخيرة لتلاشيه. حطّت الموجودات متقلقلة مضطربة بعض الشيء. كان لي أن أبصر الهالة الحمراء التي خرقت سواد الليل والصوت الذي ما زال يهدر في الأجواء. استرددت الحدّ الأدنى من وعيي.. إنه هدير لطائرة... لقد قصفوا

موقعا ما في وسط الحي وها هي ذي رائحة الموت تسدّ مسامات جديدة من العروق الصابرة في الأجساد. وجدت الرجل يضحك وهو يحاول مساعدتي على الوقوف. لم يفتح أحد نافذة أو بابا وكأنهم لم يسمعوا شيئا يذكر، أنا الوحيد الذي أفزعه القصف وألقى بي على الأرض.

- لقد أصبح أمرا مألوفا.. إنهم يدمرون ويقصفون كلّ ليلة

واستغرق في ضحكه مني.. من طريقة سقوطي على ما قال وكيف انني حاولت أن أدفن نفسي قبل أن يمضي الكتاب وتجف الصحف والأقلام. لم أستأذنه بالانصراف إلا بعد أن أطلقت صفارة الإنذار زعيقها في أجواء المدينة معلنة أن غربان العدوّ قد عادت إلى ما وراء الحدود تاركة ذيولا سوداء للأرض خلفها سيعيد رسمها الغد ويثبت لها أشكالا وأرقاما وأسماء تذاع على الأسماع والقلوب الواجفة.

سرتُ لمسافة طويلة.. بطول الليلة التي لا تريد أن تنتهي. جلستُ بعد ساعات ومسافات وهواجس تسقط من السماء كالمطر لتسكن في قاعي الذي امتلأ عن آخره. أسندتُ ظهري إلى أحد الأسيجة، بلغت أطرافي وأعضائي كلّ طاقتها على الصمود وراح بعضها يدبّ في بعض. إرهاق جعل مني أجزاء ترتبط بعضها بالبعض بخيوط واهية.. وبزغت خمائل، رأيتها آتية من جهة المقرّ عارية تمتطي ظهر حيوان صغير. مرّت أمامي وهي صامتة... دارت حولي عدة دورات قبل ان تبتسم وتشجعني على مواصلة الحراسة. لكنها لم تلبث ان عادت لتحملني معها على ظهر ذلك الحيوان الغريب وتلقيني في مكان آخر صفقت لي بيديها اللتين تقطران ما يشبه الماء طويلا قبل ان امتطي جحشا أملح ليمضي بي إلى حديقة المنزل باحثا عن جثة على يقين من انني دفنتها هناك في زاوية جرداء من تلك الزوايا الكالحة. تسارعت الصور والظلال وتسارعتُ بدوري بين هلوسة الأماكن والأوقات لأستيقظ وسط الرصيف. كان الصبح يهلّ ويطبل لمجنون بائس

تقذفه المارّة بالنظرات الهازئة والضحكات المكتومة، سمعتُ رجلا يتحدث لصاحبه عني بعد ان تجاوزني لخطوات قليلة

- يقال انه فقد عقله هناك في الـ..

و ابتعدا في ذلك الشارع الذي تغير كثيرا عن شكله وطوله ولونه البارحة. انتبهت إلى كتفي.. إلى جهتي اليمنى.. جهتي اليسرى... طالعتُ الجهات الأخرى، ولم أجد السلاح.

-5 -

أصبح بيتي في قطب الأرض.. تنأى المسافة وتكلّ الخطى، لا أعرف إن كنتُ حقا أسعى إلى منزلي أم أن جنونا غريبا يعبث برأسي يجعلني أغطّ في وهم لا سابقة له بين عجلات الأوهام التي دارت بي طوال العمر! الشمس ساطعة مدورة في السماء أخشى التحديق بها لكي لا يصيبني العمى، الشوارع حية ترزق، الأجساد تتحرك بحرية ليست معلقة في هواء التحقيق... وإذا؟ لستُ في زنزانة السجن ولا بد ان أصل إلى بيتي كما يصل اي شخص يريد العودة إلى منزله. انطلقتُ بضعف السرعة التي أقوى على اتخاذها كقرار للفرار من الموت ولم أصل.. لم اصل إلا بعد أن حملني أحدهم والقى بي على عتبة الباب. ليس من عادتها ان تبقى نائمة حتى هذا الوقت. طرقته بقوة، برغبة من يهوى دخول الجنة والإفلات من قبضة مالك -خازن النار... ويحك يا خمائل، افتحي الباب، يكاد قلبي يلفظ آخر خفقات وجيبه الذي نمّل أطرافي، لا شك ستلحق بي الفرقة بكاملها. سيأتون للبحث عن سلاحهم، ها هم آتون . قفزتُ من السياج الذي عرفت تلك اللحظة بأنني أخطأت في بنائه، كان يجب ان يكون بمستوى سطح القلب كي يتاح لي الهرب من الشارع بسهولة أكثر. وجدتها في سريرها عارية تماما إلا من لباس داخلي التصق بنوافذها بشقوقها بلحظةٍ أول

غزوة لي في تلك المجاهيل الخفية. رأيتُ وجهها يزهو بألوانه الزاهية الأولى، يغفو بهناءة عروس في صبيحة ميلادها الشيطاني الأحمر. أيقظتها ربما من حلم أحمر وارتميت هي كأنني لص داهم عريها الفاضح واريك أمان الوانها الخفية... تحجرتُ كالتمثال دون أن تتفوه بشيء، أيمكن ان تكون قد أُلهمتْ علما بمصيبتي الجديدة؟! بعد لحظات من الصمت، لا أعرف لماذا كنتُ صامتا انا ايضا، قالت بوجه مكفهر

- هل عُدتَ؟

أتراها لم ترني؟ أي سؤال هذا وأنا أقف أمام سؤالها الغريب.. نعم عدتُ.. عدتُ إلى غابتي الأبدية، إلى اللحظة التي أتطلع من خلالها إلى توهجي الأعزل، إلى موقدي الذي يطفو على ماء عطش أبحري السبعة. أتجاهل الدنيا لألوذ بدنيا خمائل. وأفرغ الذاكرة في حضرة جنوني المباغت هذا، قذفني عالم إلى عالم، أسرني أحدهما ونبذني الآخر. جلست لأضع يدي فوق باقة من العطر واحتضنتها بتؤدة. أتأمل وجهها وأتدبر في مصحف الوانها، اشهد ان لا حسن إلا حسن خمائل ولا جمال يبعثه الله للأعين إلا جمال خمائل. كانت مستسلمة نوعا ما ولم تعترض يدي وهي تسيل على منحدراتها وسفوحها المورقة فيما هي تكرر تثاؤبها. لا أعرف أن للتثاؤب أعصابا يحفزها العبث والملاطفة. ازدادت هدوءا ورحت أغرق في ذلك الهدوء أسكب دهشة عالم مسروق من زمنه وأتجشأ من تخمة النظر. من يجمع لعاب خلاياي المشدودة إليها في إناء لحظة واحدة .. لحظة تحملني إلى ذروة الظمأ! التهب لسانا مقطوعا من النار وأطلق بحواء في حمل كاذب. لماذا أمكث جافا يبسا في قاع البحر؟ لماذا لا تتقدح النار بين أجزائي التي تحتكّ كغيوم مشحونة في موسم الأمطار ؟! كلّ ما أفعله أنني أسلخ جدارا من الصلب بأظافري.. أحترق بجنبها دون بارقة من دفء... أشياء لا تعنيها ولا تثبت لديها أي معنى يفهمه الجسد. ما تريده لا

يمكن في هذه الطبقة الدنيا من الأغاريد الساذجة البلهاء. ليس لينابيع خمائل أن تتدفق في يباب خالية ووديان موحشة .. ليس لبيرقها ان يرفرف مع الريح إلا إذا هبت عليه من جهاتها الأربع. عبث يرغم الزمن أن يهرب إلى حيث أصحو من حلم تافه كهذا وأعيد الأشياء إلى أماكن انتظارها الخالد. أمسح آثار قُبَلي عن جلدها ثم أحار في لساتي الأخيرة.. أأتركها للذكرى ام ماذا!

- كيف وجدت العمل، هل جرى على ما يرام؟

فجأة تشظيني الخفقات، تمشو عيناي ويتضاعف وزني أضعافا مضاعفة. أسكن بوجه مخذول امامها. ما الذي يتحتم فعله لرجل أخزته للتوّ برودته فوق امرأة ساخنة؟ كنتُ أجلس مرتعشا على صقيع الليلة البارحة ولم يكن ثمة مخرج لي إلا من فمي لهذا أطلقتها زعقات مدوية لمقاطع مبهمة. هربت خمائل من الغرفة ووقفت عند الباب ماسكة به وقد اغلقته إلا فسحة لترقب زعيقي الأخير. لكنني اكتفيت ولذت بالصمت لتلوذ هي بالهرب بعد ان أوصدت الباب. كان لا بد لي أن أزيل ذلك الإشتباه الذي رسا في عقلها. أعلم ان هربها تبرره نوبات المردة الذين ما زالوا يحنون إليّ وما تطاير في وجهها من شرر المواجهة معهم. ولكن من اين يؤتى الكلام! اين أجد لغتي التي كنتُ أنصت بها البارحة إلى ذلك الرجل الحرسيّ!!

سمعتُ دقة عنيفة على الباب. هم بلا شك قد جاءوا للبحث عن السلاح رغم ان لديهم ما لا يحصى من قطعه في مخزن المقرّ ولا شك أنهم سيأخذونني معهم في زنزانة متحركة لن تفتح أبوابها إلا في بناية المديرية. بعد ان أغلقت الباب وأدارت المفتاح في كوّته سمعت رنينه وهو يسقط من يدها على الأرض. كان ذلك الرنين آخر ما سمعته في البيت. سكن كلّ شيء ومرّ الوقت، مرّ من أول جمعة اجتمع فيها الخلق لله حتى آخر سبت تقوم فيه القيامة.. صمت مطبق وهدوء كهدوء المحاجر والزنازين العميقة بعد وجبة تعذيب لاهبة حيث يفقد

ببعض صفات وعيه وحواسه. تمحكت في هذا الفاصل بين الأزل والأبد
أن أخطو بضعة خطوات وأدسّ نفسي تحت السرير لأختبئ في ظلمته مزاحما كومة من الأحذية البالية التي تهوى خمائل جمعها تحت سريرنا منذ أعوام.

-6 -

تصارعتُ مع ألف مارد تحت السرير، هزمني بعضهم وغلبت البعض قبل أن أسمع الباب الخارجية وقد صُفقت بقوة. احتملت أنها أفلحت في صرفهم فهم أكثر أدبا أمام النساء الجميلات أمثال خمائل ولكن.. هل حقا أفلحت هذه الشيطانة في إقناعهم باني لستُ في داخل المنزل ام انها اختلقت عذرا ما لا أقوى على احتماله من كيدها ؟ كيف تركوا قطعة السلاح تائهة وذهبوا بهذه السهولة! كانت الخطوات القادمة توقّع لحنا نشازا ليس لقدم خمائل أبدا .. ليس هذا نعالها الذي يطقطق خلفها. كان بوسعي ان أميز تماما بين صوت خمائل الناعم وأصوات الخليقة كلها.. بين طقطقة نعالها وكل أصوات الأشياء على الأرض. كان ثمة همس خشن مرعب تناهى إليّ مع اقتراب تلك الخطوات الثقيلة. لقد جاء أحدهم معها إذاً... اجتمعت كلي في نقطة من جسدي، حملتُ مكاني نحو الباب ببطولتي المعهودة وسحبتُ المزلاج الداخلي لإقفاله. حاولا بصمت فتح الباب، أدارا المفتاح مرارا قبل أن ينطلق صوت الرجل الذي معها مستفسرا منها عن سرّ بقائه مغلقا

- لقد أغلقه من الداخل... وضعه غير طبيعي بالمرة. لقد قلتُ لك...

وانطلقت ضحكة هازئة لا أدري من أيهما، لكنها ضحكة مقرفة تافهة.

- ثائر.. ثائر... افتح أنا هاشم. ما الذي أصابك يا رجل؟ أرجوك افتح الباب

لم يكن لهاشم صوت قويّ كهذا. شككت كثيرا في البداية فأصوات رجال الأمن والرفاق تتشابه ولكن همسات خمائل أكدت لي انه ليس إلا هاشما بالفعل، كلامها وحده في ذاته دليل على ذلك فلو كانوا هم حقا لما نبست بحرف فالمرء حين يجبر على فعل شيء هذه الايام يذهب إليه صامتا دون كلام وليس لخمائل أن تدلهم علي بهذا الشكل.. سترفضهم، تقاومهم لن تسمح لهم بالدخول هادئين على الأقل. هممت بفتح الباب وأنا أسمع خمائل تدعوه إلى كسر الباب وإخراجي للذهاب بي إلى.. لكنني لم أعِ جيدا المكان ربما قالت له المستشفى أو.. لا أدري.

فتحت الباب وقابلني بابتسامة لا تشبه ابتساماته التي عرفتها وألفتها منه. اربت على كتفي، كان حذرا مني ما دفعني إلى أن أشعر بقوة عجيبة ،وثقت تماما من براءتي حتى ولو قاضاني الرئيس نفسه. جلسنا معا على السرير وقد دلى قدميه واتكأ على يده اليمنى التي كانت أصابعها مبسوطة بالقرب من حمالة الصدر التي تركتها خمائل هناك بعد أن سارعت لالتقاط ثوبها والهرب مني... سألني وهو يبتسم:

- كيف وجدتَ الحراسة؟

وأجبته على الفور ناسيا قوتي التي يجب أن تستمر بدلا من أن تتهشم بسرعة على مجرد سؤال لهاشم طرحه ببرود وارتياح:

- إنني في ورطة كبيرة ربما تعيدني إليهم.
- تعيدك إليهم..!
- إلى سجن المديرية.
- خيرا إن شاء الله
- فقدت السلاح الذي في ذمتي... غلبني النعاس على قارعة الرصيف وحين استيقظت كان قد سُرِق.

- حقا إنها مشكلة...
- قلتُ لك انني لا أصلح لعمل من هذا النوع...
- اهدأ.. اهدأ، سأذهب لأرى كيف يمكن تسوية الأمر قبل أن يأتوا لاعتقالك.

لم يغب طويلا كما قالت خمائل حين لمحته عند الباب، اعتقد انها كانت على حق فساعة واحدة تقريبا لم تكن بل لا تليق بمهمة إقناعهم بالسكوت عن قطعة سلاح سرقتها في تصورهم دون شك لا سيما وأن عقوبتها قد تصل إلى قطع عنقي. ربما فاتني دفعا لهاجس الوقت هذا انه واحد منهم وذو مكانة مرموقة في سلّمهم الحزبي استلم سيارة فخمة قبل شهرين كما اخبرني هو وتمت مضاعفة مرتبه ثلاث مرات في الآونة الأخيرة. ما ان دخل هاشم حتى أطلق قهقهة عالية واحتقن وجهه قبل أن يخبو جالسا بهدوء وبرودة قد يكون افتعلها لإثارتي قليلا، أو إثارة خمائل التي صرخت في وجهه: اخبرنا ماذا قالوا؟ وأطاعها بعد لحظات موضحا بأن السلاح لم يسرق بل إن أحد المسؤولين كان قد مرّ في مهمة تفتيش روتينية ووجدني غاطا في النوم على الرصيف وشاءت رحمته الفاضلة ان يتركني أتقلب في احلامي المكشوفة في العراء مكتفيا باخذ السلاح وحسب. وأضاف هاشم بعد ان زايلته تلك الإشراقة التي كانت متناغمة مع لهجته وكلماته الهادئة:

- إنها من حيل المعسكر ووقعت فيها ذات مرة وأنا أخدم في الجيش، ولكن على أية حال لم افلح في إقناعهم باستمرارك في العمل.

انتابني شعور بالراحة وشعرت أنني أمر بلحظات باذخة قلما مررت بها في حياتي، شعور من يتخلص من أحماله المنهكة دفعة واحدة. لكن نظرات خمائل كانت مركزة صوب هاشم. وبدا الغضب على وجهها واضحا لم ينل منه إلا محض وعد أطلقه هاشم بروية على عادته وأكد أنه يملك خيطا من الأمل استلّه من حوار عابر مع صديق لم يفصح عن هويته ووظيفته كان قد التقى به البارحة. بدت خمائل

أكثر هدوء بل ربما تحولت إلى امرأة أخرى بعدما أجابها عن سؤال طرحته حول طبيعة الفرصة المحتملة وكان جوابه انها وظيفة للحراسة في إحدى المؤسسات الحكومية لا تبعد كثيرا عن الحي براتب جيد وأن الحراسة المنتظرة خاضعة لمبدأ التناوب فالعمل لا يتعدى الساعتين في حين بوسعي قضاء الوقت المتبقي من الليل في الشخير.

يوم واحد فقط وعاد هاشم حاملا كتاب مذيل بإمضاء المدير العام ومرفقا معه تعهدا خطيا بعدم وجود أي ولاء سياسي أو حزبي مشبوه وطلب مني إمضاءه على عجل ليتسنى له العودة لإكمال الإجراءات المتبقية. سألته خمائل قبل أن يهمّ بالمغادرة فيما إذا كان بإمكانه المجيء لتناول الغداء معنا وأجابها بحركة مفهومة.. انه سيأتي .لم نتحدث معا إلا نادرا تلك الظهيرة، كنتُ أبحث في المنزل عن أشياء احركها عن اماكنها دون جدوى ثم اكتفيت بالجلوس قريبا منها في المطبخ وهي تحضر الطعام. كانت جالسة وساقها المكشوفة تشع بكل سحرها وبذخها المكتنز إلى جانب ردفها بتلك الجلسة التي تفضلها ربات الدلال. لم يمضِ الكثير من الوقت لأفكر في مصارعة مارد من أولئك الذين تكتظ بهم الذاكرة فقد عاد هاشم طاليا حلاوة البشرى التي أفزعتني بعض الشيء. لم تغير خمائل من وضعها حين وقف هو عند الباب ليخبرها بأنه نجح في إكمال إجراءات توظيفي حارسا وعلى الملاك الدائم واستمرت بالعمل على قطعة مكعبة من الخشب اتخذتها لتقطيع الخضر وقد ارتسمت على محياها ملامحُ من الرضا قلّ أن تبزغ بكل ذلك البهاء الفاتن على وجهها. عصرا غادر هاشم تاركا نصيحته لي بضرورة المراجعة لمكان وظيفتي في الغد على أمل المباشرة فورا. بعد أن ودّعني ببوق سيارته أمام باب المنزل عدتُ لأجد خمائل وقد دفنت جسدها تحت دثارتها وحين شعرت بوجودي طلبت أن أوقد المدفأة النفطية والهدوء فهي لم تنل كفايتها من النوم الليلة الماضية ! كنتُ أنا الآخر أشعر بالتعب

لكنني ترددت في رغبتي بالنوم ورحتُ أجوب أنحاء الوقت حتى استيقظت من نومها عند السابعة مساءا. لا أذكر ما الذي فعلته طيلة ذلك المساء وخمائل هاجعة في أحلامها الدافئة... كيف زحف الوقت إلى هذا الوقت !! ما أقوى على قوله أنني دخلت إلى محجر بارد وخرجتُ متفحما من أتون تقلبت فيها مع أجساد عديدة اختلطت بها عضوا عضوا ومسامة مسامة .. قبلت وجوها وبصقت على أخرى إلى أن صافحتُ وجه خمائل الذي أعاد النوم ترتيب ملامحه بشكل غريب، كانت ضجرة منفعلة، صرخت بي أكثر من مرة ولذت بالصمت أمام رهبة مزاجها الحادّ. وحين تناولت العشاء كانت هي في الحمام مع مذياعها الصغير التي جلبته معها بعد عودتها الأخيرة من منزل والدتها. كانت تدندن مع تلك الأغنية الراقصة التي جعلتني أزهد بالطبق الفقير الذي بين يدي جوعي وأقلبه على الأرض .. ترى ما تكون حياة هذه المغنية التي أذكر أنني طالما تطلعت إلى فتنتها، تلك الباقة المتناسقة من الورود التي ينثرها حذاء الشيطان حول قلبي المتراقص أمام شاشة التلفاز قبل أن أقدم على بيعه لشراء الطحين... ما تكون حياة تلك الزنبقة ! هل نعرف حقا معاني اللغة التي نعرفها؟ حفلة واحدة في ملهى ليلي تتخم جيبها بمرتب عام كامل لوظيفتي السابقة.. ثمن كأس واحدة تترشفها للنصف يكفيني لشراء وجبتين تغمرني خمائل لأجلهما بآلاف القبل والقبل والقبل والأشياء الناعمة الأخرى.. وقفت أتنصت على مذياعها خلف الباب ثم اختلست النظر من ذلك الخرم الذي ثقبه إبليس لأجلي دأبت في مثابرة هادئة وقصيرة لاكتشاف خمائل وهي تحت الماء.. رأيتها بعريها اللامع وزخارفها الشهية المائعة. انصهرت حواسي في نقطة حمراء تشهق مع أنفاسي، يا لها من لحظة ترمسني في مستقر جوعي وتفاهة بللي، تنقضّ فوق رأسي سقوف من التراب وتخرّ عليّ سماوات حيلي البائسة النكدة. أكاد أشعر بلذة أصابعها وهي تبحث عن نغمة مسحورة في وعاء دهشة الجسد من

وجوده، حيرته في نفسه... طالما بحثت خمائل عن ذلك في مقابري التي عدت بها شبحا من رحلتي إلى عالم المردة.. يانعة هي كمرارتي، وتلك النظرات التي تنزلق على منحنى الإشراق كم هي أغنى وأثرى من جثتي المحنطة بالصمت والجوع المرّ الذي يقطعني. ويحك يا خمائل، أي عدالة في هذا القدر الذي يربر في ساحتي. ها أنت مكشوفة حدّ القاع كزلال الجنّة، ومحترق أنا حدّ العظم بظمأي.

لم أكن قادرا على الإفلات من جهتي التي اندسست فيها. ولم اكن لأعدّ نفسي لمثل هذه المفاجأة. لقد رأيت خمائل وهي تتضح عبثها في مبالغ أنوارها السفلى. أوغلت في المكان والزمان بكل حرائقي ولفحات الجحيم التي تعذّب شيطاني. سمعت تلك الشهقة، شهقة حواء في كهفها الخالد، همس الرحيق الذي يمتّع زهرتي ويمنحها ألوان النور. كانت تضع يدها على مكامن المرح فلحواء أن تبني أكناف جنتها فوق زبد لحظتين .. أمرّت خمائل بعضها على بعض ونفخت في بوق قيامتها، تحتشد على ينابيعها بأثرة وتتيجس بكلها في حقل يانع لشهوتها الماكرة. تداعب رمحها وهو يطمن قلبي، تنزعه من شكي لتغرسه في يقينها. كنتُ أجوب في فضاء كالح كأيامي التي أغمي على تاريخها وأوقاتي في المحاجر والزنازين الباردة. يهبط وجهها ليقابل بزيزي اللص الذي يتمسح أمام شفتيها وهما تقبلان إحداهما الأخرى، ترتشفان اللذة من ريقها.. الريق يرشف من فمها، أحشاؤها ترشف أحشاءها ثم تنطفئ حرارتها تحت الماء لتعود بعد لحظات توقد خرافتها تعيد خلق جسدها ثانية وآدم يقف محتقرا بؤسه وخصوبته الميتة.. كيف يشهد خلقه! ينظر إلى صلصاله وهاتف يصيح بداخله أن أقدمْ أيها المخلوق الطيني، أزحف نحوها.. انسلّ من هذا الخرم كالحية الملساء وأدخل جنة ربك التي عرضها حواء وطولها حواء. تجلس خمائل كالمسوسة في طست الماء وأسمعها تموي، من منهما يصرخ الماء أم الجمر؟ وأخيرا انتهت خمائل من لعبتها اللاهثة. والحقيقة التي أعترف

بها الآن لنفسي أنني لم اكن أعرف أن خمائل متوقدة مدمنة حارة مهووسة إلى كلّ هذا الحدّ الذي يدفعها إلى ممارسة هذا الشذوذ الذي لا أستطيع معاقبتها عليه! كنتُ أؤمن بانها نادرة، نادرة في كلّ شيء وكما كانت تردد لي والدتها: امرأتك مزيج من النار والريح. ارتدت ثيابها ورأيت لباسها الداخلي وهو يلتصق على رابيتها التي اكتسبت مرونة وليونة اكثر. تسمرت عند الباب وحين وجدتني هناك انتصبت بشموخ للحظة ثم مضت دون أن تعيرني أي اهتمام. لم تسألني عما كنت أفعل بل رفعت انفها ونهديها بثقة ملاك لا يُسأل عما يفعله بأمر الله.

في الصباح الذي خرجت فيه لإكمال الإجراءات النهائية للتوظيف وجدتُ هاشما منتظرا بسيارته عند نهاية الزقاق. قال انه يريد التأكد بنفسه من أن الأمور ستجري دون معوقات ولن يطمئن حتى يراني قد حملت كتاب المباشرة. خامرني الشك في كونه واثقا من قبولي في هذه الوظيفة لا سيما وانه أكد لي بالأمس أن مراجعتي هذه إنما لغرض إمضاء آخر الأوراق المطلوبة وتسليمها للجهة المعنية داخل الدائرة ومعرفة موعد المباشرة .إلا أن شكي قد تبدد منذ اللحظة الأولى التي دخلنا فيها معا إلى مكتب المدير فبعد سلسلة من جمل الترحيب والتملق لهاشم من قبل الموظفين كان تملق المدير نفسه مثيرا للشفقة حقا وقد نالني شيء من ذلك الاحتفال اللفظي الصاخب وطعمت فتاتا مما يقتاته هاشم وأمثاله على موائد عامرة بطيبات الدنيا يوميا. جلسنا في ذلك المكتب الفخم وكان المدير يقبع في مكانه أمام صورة بمساحة الجدار الذي خلفه للرئيس وهو يومئ بتحيته الساكنة منذ أعوام مديدة. بعد أصناف من المزح الباردة التي حاول الطرفان من خلالها أن يحددا حجمي الضئيل بشكل دقيق تمّ إصدار أمر المباشرة ولكن بعد عشرة أيام ثم قُلِصت لأسباب اجهلها بعد حديث غير مفهوم بالنسبة لي دار بينهما إلى يومين فقط.

لم يجد صاحبي متسعا إضافيا من وقته لإرجاعي بسيارته إلى المنزل وعدتُ بعد افتراضي منه وبلهجة غير متصدقة مبلغا يسيرا من المال دفعه لي وهو ينظر إلى مكان آخر غير نقوده ومحفظته. دلفت قبل أن أسلك الطريق الذي يؤدي بي صوب المنزل إلى سوق الحي الصغيرة. تساءلت ما الذي مرّ بخاطر جوعها يا ترى؟؟ إنها تحبّ الفاكهة لا سيما الموز والتفاح. تأكدت من المبلغ المقترض في جيبي. كان كافيا لشراء بعض الخضر وكيلو من البرتقال أما الموز والتفاح فلا سبيل إليهما بعد ذلك. هكذا تصرّفت خبرتي الشرائية ورجعتُ إلى خمائل لأجدها تطهو الدجاج ومنهمكة بتكوين طبق زاه من السلطة .. سألتها عن السرّ الذي جعل الدجاج يزورنا على غير موعد وأجابت بأن لديها بعض المال جاءت به من والدتها ثم راحت تؤنبني على سوء شرائي فالطماطم غير ناضجة وحزم الخضار ذابلة أما الفاكهة فقد باشرت بتقشيرها دون إبداء رأي يذكر. المفارقة أن خمائل كانت تتصور أنهم أعطوني راتبا شهريا مقدما وعليها أن تدخر الباقي وتمسك بزمام التسوق.

- كلّ شيء لهم أن يقدموه إلا المرتبات..

-7 -

كم كانت خمائل متضايقة لهذا التأخير وخمّنتْ بأن المدير يخطط لسرقة مرتبي إذ أمر بتأخير مباشرتي ليومين كي نتجاوز منتصف الشهر وعندها تكون الحجة دامغة لأنني حينذاك أكون قد التحقت بالدوام متأخرا ولم يتسنَّ رفع اسمي للحسابات أو ما شاكل ذلك. هكذا قرأت خمائل الموضوع من جانبها وأصرّت على أن ما تقوله هو الصحيح الذي لا يشك فيه عاقل سواي. ضحك هاشم من رأيها واستسخفه أمامها حين أطلعته على ما تقول مؤكدا لها ولي أيضا بل للجنّ الذين يسترقون السمع أن المدير لا يقترف عملا دنيئا من هذا

النوع وهو يملك ما لو رُصِد لدفع رواتب الموظفين في الشركة وفروعها لما نفد قبل عشرين عاما على الأقل. فما حاجته لمرتب تعبان كمرتبي الذي لا يمثل له إلا مصروف ساعة واحدة لم يعينها هاشم بدقة لكن من المؤكد أنها ساعة نهارية دون ريب!

في عصر اليوم التالي كنتُ وخمائل منهمكين في تغيير مكان إحدى قطع الأثاث العتيق في غرفة النوم حين سمعنا طرقتين عنيفتين على الباب، لم يكن يدر في خلدي أنني سأجد ذلك الوجه الذي يخرق الأبعاد المعتادة لوجوه البشر والذي سبق أن أطلق نكته القذرة في تلك الليلة الطويلة عند باب مقرّ الفرقة الحزبية وجدته واقفا على مبعدة ومسندا ظهره إلى السياج. كان يجب أن أسأله عما يريده مني لكنني لم أعثر على صوتي ولحسن الحظ فإن خمائل كانت قد لحقت بي أطلقت هي السؤال بجرأة واضحة:

- تفضل أستاذ ماذا تريد.. خيرا إن شاء الله؟!
- يجب على الأخ ثائر أن يأتي إلى المقرّ صباح الغد.
- ولماذا هل من سبب؟
- يجب عليه التطوع في جيش الـ..

وقاطعته بلسان ذرب قلّ أن يوجد مثله في أفواه الرجال:

- لقد توظف وبدأ عمله موظفا.. الموظفون غير مشمولين بالتطوع في هذا الجيش.

لكنه ردّ بغضب مقدس وهو يضرب الحائط براحة يده: سابقا..

- أقول لك توظف، توظف ثانية وباشر بالعمل اليوم.

ارتعبت للكذبة التي أطلقتها خمائل وكدت أفقد توازني لأفضح هذه الجريمة الصالحة. لكنه سارع إلى قذف جملته الرسولية:

- يجب عليه الالتحاق بالوجبة الجديدة وأسمه مسجل في القائمة ولا علاقة لي أنا بالأمر. واجبي التبليغ وحسب.

ومضى باتجاه المنزل المجاور فيما صفقت خمائل الباب بقوة وطلبت مني العودة لإكمال عملنا في تنظيف الغرفة. لكنها لم تلبث أن سألتني عن إمكانية التوفيق بين عملي كحارس والخضوع لرغبتهم في الالتحاق بالوجبة الجديدة للمتطوعين سيما وانها سمعت من جاراتها إن المسألة تنحصر في بعض التدريبات الروتينية أثناء النهار تؤدى في مكان قريب من الحيّ. أجبتها بأنني لم أتحول بعد إلى حمار لأعمل أربعا وعشرين ساعة وإذا كان من خيار عندي فسأترك العمل والتحق بالتدريبات العسكرية . كانت في تلك اللحظة تعيد ترتيب بعض قطع الملابس القديمة وحين سمعت هذا الردّ طوّحت بإحدى القطع التي كانت في يدها وقالت بما يشبه الصراخ: لن تترك الوظيفة مهما كان الأمر. أمضت لحظات صامتة قبل أن تنتفض لتؤكد لي أنها ستذهب إلى هاشم على الفور، إنه الرجل الوحيد الذي سيضع حدًا للموضوع .

انشغلت بالنظر إلى كنز صدرها المتلألئ، مرّ وقت طويل لم أرها امامي وهي تغير ثيابها كاملة من أعمق قشر ساحر إلى آخر لونٍ من صدفتها. تركتها تكمل عملها الذي بدا لي أنه من أروع الأعمال التي تقوم بها خمائل، جهزت حقيبتها الصغيرة وقبل أن تصفق الباب وراء خطواتها المتهادية اقترحت أن أذهب بنفسي إلى هاشم لكنها مضت دون أن تلتفت إلى هذه الرغبة المتأخرة. كان الجوّ ثقيلا وملامح الغروب ذكرتني بأكثر من سرّ من أسرار خمائل، وبأكثر من مكان من أمكنتها القديمة معي. لم تعد إلا بعد مضيّ ساعتين ونصف وبضعة دقائق ماردة وبرفقة هاشم نفسه الذي قابلني وهو يبتسم. قال إن الموضوع قد انتهى ثم استأذن بالانصراف تاركا سرد التفاصيل لخمائل التي جعلت من الأمر حكاية شيقة توفرت على ثلاث مفاجآت أولاها أنها لم تجد هاشما في منزله واضطرت لانتظاره حتى عودته والثانية أن الشخص المسؤول الذي أدرج اسمي في القائمة المطلوبة من ألدّ الأعداء لهاشم وأما المفاجأة الثالثة فإنني غير مشمول

اصلا بواجب التطوع لكوني اقع في خانة بعض الاعمار المستثناة من ذلك طبقا للضوابط الصادرة من الجهات العليا التي تمنع شمول بعض الأعمار لإمكانية طلبهم لخدمة الاحتياط في الجيش النظامي وإدراجي في القائمة لم يكن سوى اجتهاد شخصي قام به ذلك العدوّ الألدّ. كانت خمائل فرحة إلى درجة أثارت استغرابي الذي قلما يثار بسبب تصرفاتها. رقصت لي وغنّت بصوتها الدافئ، عربدت قليلا كالسكرانة قبل أن تلقي بجسدها الشيطاني قريبا مني على السرير لتحدثني بلهجة ذائبة في حلم ما حول ما رأته في بيت هاشم من أثاث فاخر وتحف رائعة هنا وهناك ومفروشات لا توصف وستائر لم تقع عيناها على مثيل لها من قبل. الشيء الوحيد الذي لم تجده منسجما مع ذلك الترف والثراء هو الوجه البشع لزوجته، ذلك الوجه الذي رأت انه لا يستحق أن يلقي عليه هاشم نظرة واحدة وتساءلت خمائل:

- كيف له أن يتحمل العيش معها في بيت واحد ؟ إنه رجل وسيم للغاية وشخصيته جذابة ويبقى مع هذه القردة..!

ثرثرت بكلمات أخرى لم أعرها اهتماما أو انني لم اسمعها فقد هربت إلى ساحة صمتي وخبّأت رأسي تحت الملحفة. لكن خمائل الليلة غيرها في الليالي الأخرى. لقد أزاحت الملحفة عني وابتسمت قبل أن تخلع ثوبها الشفاف. انسابت يدها الناعمة على صفحة وجهي وأحسست بعبق أنفاسها الدافئة وهي تشملني حدّ العظم. غمرتني الدهشة بالفعل لهذا الودّ الأنوثيّ المفاجئ الذي راحت تزمّلني بشرشفه الأحمر المتوهج من هامتي إلى دائرتي القطبية المتجمدة، هل أنا هدفها حقا؟ الستُ الجمرة التي لا بد من سحقها للوصول إلى غاية أخرى تقبع وراء جذعي الهامدة! أعلم أن خيالها كغيرها من النساء إنه نصف الشهوة العارمة التي تقطن في أوصالهنّ. تلوغ خمائل بطهارتي، طهارة بركة آسنة بعد جفافها حدّ القاع. أنظر إليها وهي تدغدغ مفاتيح اللهاث من جسدها الملتصق أنا بعريه كما رأيتها تفعل في الحمام

وينهمر شلال من النور الأشقر، انغمس في عطرة قبل أن ترده بحركة مهرة جامحة لتتفتح على مصراع اللذة المجنونة مغمضة عينيها تاركة وجهي وهو يبحث عن ملامحه القديمة لم أرَ وجهي القديم وهو يتكهرب فوق خميلتها اللزجة لكنني موقن تماما بان ملامحي الآن لا تلائم قدَمي على الإطلاق. جلست خمائل على بطني وركزت ثقلها في نقطة زرعتني في عمقها، تتنظر الثمر الجائع، سرى الجوع في أوصالها حتى الرأس وشمرت بقشعريرتها واهتزازها الذي يثمل في لحظته الشيطان. أثقلها المرح فتهاوى نصفها الأعلى إلى الوراء ليرتفع النصف الأسفل مشرعا أمامي وراحت تحرك أطرافي في لعبة لم أفهم شيئا من غايتها ولكن خطرت لمحات من ذكريات الأشرطة الممنوعة وحكايات الماضي المصورة لأمل وزهراء في رأسي. لا أدري ما الذي نقل يدي إلى ذلك المكان؟ وما الذي ينتقي من أصابعها لهذه اللوثة الجسدية العارضة؟ شعرت للحظة، لحظة واحدة فقط، أنني اتكئ على عرش إمبراطور.. أسود عالم الرجال والنساء والشياطين، ألمس في داخلي شعورا بزهو لا نظير له. ويهطل وجهها مرة أخرى لكن لغاية مختلفة واضحة هذه المرة فقد أطبقت شفتاها الصغيرتان على فمي. قطعة ساخنة من اللحم الحيّ تتقلب فوقي. أشعر بآلاف العروق الخائرة وهي تتفتح في داخلي، تحاول أن تلفظ سكونها الصدئ من فجوة لا تتسع لكل هذا اليحموم الدافق. ترقرقت في كأسها كالخمر وترقرقت في كأسي كالخمر، لكنني لم أُطل سكرتي. صحوت من خمرها ومن نفسي فجأة. انتبهت إلى حقيقة أنني لا أقوى على مجاراة ذلك الاشتعال الأرعن. كنتُ منطفئا لا أملك درجة اتقاد إصبع من أصابعها. ليس بوسع مقاطعي المرتبة الجامدة أن تهذي، أن تتقلب إلى هلوسة تختلق عالما لا بد أن يُختلق. يا لها من مفارقة تلك التي أنغمس فيها موزّعا بين كلّ الأماكن التي أعرفها .. أقف عند بداية الطريق ونهايته في وقت واحد. تعاظم ثقل خمائل على صدري. لم أطق

وزنها الذي كاد يحطم أضلاعي وأخذت التقط انفاسي بصعوبة، اختنق اختناقا باردا... أقترب من موت كريه لا قدامة له ولا شهادة فيه. قبل أن اختنق تماما دفعتها عني بقوة وتركتها تتدحرج من على السرير إلى الأرض.

-8-

الساعة الثالثة والنصف مساءا. أعلم انه وقت مبكر للذهاب إلى العمل ولكن ثمة خوف يداهم الإنسان في خطوته الأولى من هذا المارد الذي يسمونه الوقت. عليّ أن أوفر لنفسي ساعة أو أكثر من الطمأنينة وقد كانت خمائل أشدّ حماسة مني للخروج مبكرا فطفقت تعدّ لي الطعام على عجل ووضعته في كيس من البلاستيك بعد ان لفّته بصحيفة عتيقة وجدتها في زاوية ما من غرفتي المهجورة. حين وصلت إلى باب الاستعلامات حرص أحد الموظفين على تفتيش محتويات الكيس والتأكد من أنه لا يحتوي سوى كبسة البطاطا، تذوقها بطرف سبابته وأظهر اشمئزازه من مذاقها قبل أن يلفها كيفما اتفق ويلقيها على الطاولة. على الجانب الأيسر من الطريق الذي يمتدّ داخل الشركة إلى حيث أول ورشة لمعالجة المواد المستهلكة كانت ثمة غرفة صغيرة وضع بالقرب من بابها مصطبة متهرئة من الخشب وقد انتصب إلى جانبها أحد الأشخاص شابكا يديه بطريقة استعراضية وغارسا سيجارته في فمه، كان يبدو في تلك الوقفة كالسيد الذي يراقب عمل قطعان عارية من العبيد. خمّنتُ على الفور مستلهما خبرتي الوظيفية السابقة انه من رجال الأمن المبثوثين في دوائر الحكومة. أجزم انه لم يكن يختلف في شيء عن أولئك المردة الجبارين الذين أدمنوا تقطيعي ستة أشهر متواصلة. داهمني خوف كاد يشلني عن السير، بمعن في إرباكي كلما اقتربت منه وازدادت ملامحه وضوحا أمام ذاكرتي الملعونة. صورة طبق الأصل من ذلك المحقق الذي هوى

على راس الأستاذ أبي بلقيس بعمود صلد أخرج جزءا من دماغه. كان ذا جثة ضخمة ومنكبين عريضين ووجه لم تنبت فيه شعرة واحدة أما عيناه فلا تختلفان أبدا عن عيونهم، هما هما ، كائنان مرعبان يفرقان في أفق أحمر، ينبئان بغيب أمثالي من التائهين على الرصيف. فكرت في صيغة التحية التي سألقيها وأنا ما أزال على بعد خطوات عدة منه. ولكنني عندما أصبحت إزاءه تماما لذتُ بالصمت. لم أنبس بشيء يذكر. ليبادرني هو بالسؤال:

- تفضل أخي..

شجعتني لهجته المتهاونة على أن استجمع قواي وبدأت بالنطق في حضرته قائلا:

- الحارس الجديد.. ثائر مجدول.
- نعم.. نعم، وقّع في السجل أمام اسمك...

و تحركتُ وفقا لإشارته التي قادتني إلى تلك الغرفة حيث كان ثلاثة رجال يتقاسمون عملية تحضير الشاي وسط ضجة واضحة. كان أحدهم منشغلا بإيقاد مشعل نفطي صغير والثاني الذي بدا رجلا كبيرا في السنّ يقوم على إعداد الآنية فيما كان الأخير يناقل كمية من الشاي والسكر بين بضعة أكياس صغيرة وضعها أمامه على طاولة عالية متسخة تماما. همستُ بتحية المساء وردّ الجميع بهدوء ودون اكتراث كبير. تلفتُ بحثا عن السجل الذي طولبتُ بالتوقيع فيه أمام اسمي وقبل أن تقع عليه عيناي دخل الرجل الذي كان واقفا في الخارج وجنب السجل بلمح البصر من مكان ما وبعد إمضائي وضعه تحت إبطه لينصرف خارجا. جلستُ بعد دعوة ذلك الشاب عقب نجاحه في إيقاد المشعل النفطي وما أن نظّف يديه بقطعة قماش حتى بدأ يتحدث معي ذلك الحديث الذي يجب أن يجري عادة بعد انضمام شخص إلى جماعة لا يعرفونه من الآدميين فقد عرّفني على نفسه وعلى زميليه الآخرين وأضاف بعد جمل وافية من الترحيب:

- نحن ننسق الحراسة بيننا بشكل يمنح كلا منا قسطا من الراحة لساعتين تقريبا.

- قيل لي أن زمن الحراسة ساعتان فقط.

قدّمتُ اعتراضي السابق بشكل حاد، وحدق بي الرجل قليلا قبل أن يقول بلهجة هادئة:

- من الواجب ان نبقى مستيقظين طوال الليل، هذه هي الحراسة... لكننا ننسق عملنا هنا وقد نضطر جميعا إلى الاستمرار في مسلك الواجب طوال الليل أحيانا .لكن في الغالب يحظى كل منا بقسط من الراحة.. أضاف عندها ذلك الرجل الكبير الذي لا يزال منهمكا في تحضير الشاي:

- إذا لم يعترض أبو الشلغم..

لم يطلعني أحد منهم على من يكون أبو الشلغم هذا!، لكنه فيما يبدو شخصية مسؤولة ومخيفة خمّنتُ انه الشخص الذي رأيته واقفا أمام الباب عند مجيئي إلى هنا. كان الجوّ في الغرفة خانقا ورغم النوادر المضحكة التي كان ابو ليث، أكبر الموجودين سنا، يطلقها بين الحين والآخر إلا أنني لم اجتز محيط هذه الدائرة البشرية. كانت الوجوه الثلاثة غريبة الملامح بالنسبة لي، تحدّثت قليلا معهم حول أشياء تافهة سوى ما خاض فيه سيد أحمد، ذلك الشاب المرح الذي رحب بي وعرّفني على الآخرَين، حين ولج موضوع النساء من بابه الأشهى ولكنه ألحّ إلى الدرجة التي أفسدت كلّ ما دار في مخيلتي تلك اللحظات. لم تكن تلك الليلة كمثيلتها السابقة في شارع المقر الحزبي. لقد مرّ الوقت بسرعة مدهشة رغم أنني لم أنم سوى ساعة واحدة فقط. كان أبو كرار، الحارس الثالث بينهم، يوقظني باستمرار منبها إلى أن "أبو الشلغم" قد جاء. لم يخطئ حدسي فقد كان أبو الشلغم هو عين ذلك المارد الذي اصطدمت بظله الأسود عند

باب غرفة الحرّاس هذه. وهو المسؤول على الحرّاس وضابط برتبة ملازم في أمن الشركة.

وأخيرا جاء الصباح، لم يكن بوسعي المغادرة قبل أن تدخل وجوه جديدة إلى غرفة الحراسة واطلعت حينها على مفاجأة لا بأس بها إذ أن العمل هنا يجري بشكل متناوب وليس مستمرا فكلّ ليلة حراسة تعقبها استراحة لليلة واحدة. كان الموظفون والعمال قد بدءوا بالتوافد عندما خرجتُ وقد جذبتني بعض الغصون المتموجة للموظفات اللواتي كنّ على قدر وافر من الأناقة والتبرّج. عدتُ محملا بالصحو، لم استطع النوم رغم أن خمائل قد عادت لإكمال نومها بعد أن فتحت لي الباب بوجه لا بريق فيه. كانت ذابلة تماما وكأنها هي الأخرى أمضت ليلتها ساهرة. حاولت أن أوقظ جزءا منها بالحديث عن سهولة العمل الجديد وأن معاناة الحراسة كانت أقل مما توقعته إلا أنها لم ترفع جفونها لهذا الحلم الذي كان يراودها وهو يتحقق على أرض الواقع. أغفت دون تمهل وأثقلت راسي بتلك الوحدة التي سحبت خيوط الصحو شيئا فشيئا إلى أن طرحتني إلى جانبها مبتلّاً بغبطة لا أعرف لها سببا من الأسباب.

لم تتركني أكمل ذلك الحلم الشهيّ الذي عشته بلا زمن كغيره من الأحلام الشهية. فقد أيقظتني في الساعة الثانية تماما وهي تدقّ أجراسها جميعا تهيؤا لإعداد نفسي للذهاب إلى العمل. بدت بلا وجه حين أعلمتها أن الليلة القادمة ليلة استراحة تعقبها ليلة عمل وهكذا. فهمتُ وجومها لحظة إذ على انه تعبير واضح عن عدم ثقتها بهذه الاستراحة المزعومة، قالت بالحرف الواحد أن هاشما لم يذكر لنا شيئا من ذلك. تخشى خمائل من أنني أحاول التملّص من العمل والوعد الذي قطعته لأجل عودتها، فهي تحرص على ان يكون لنا دخل ثابت ومأمون لنكمل مسيرة حياتنا بشكل طبيعي كغيرنا من الأزواج. حاولت أن أطمئن مخاوفها واظهرت قدرا من الحنكة والذكاء في

إقناعها وسرعان ما تحولت تلك المحاولة بكلماتها التقليدية الجافة إلى قصيدة من الشعر حين رحتُ أسمعها كلمات الغزل وأصفها بكل الأوصاف الجميلة التي أعرفها. منذ خروجي من السجن لم أغازل خمائل بهذه الطريقة الناعمة واعتدتُ أن أثيرها مباشرة بحركات لا أعرف تماما مقدار تأثيرها في امرأة كخمائل، محاولاتي كانت قليلة لا سيما مع إعراضها واستهزائها بي، برجل لا يسعه مهما بلغ في محاولاته من جهد ان يطرح الثمرة الأخيرة من غصن شيطانها. هذا ما اعرفه وأعيه ولكنني أدمنت مرارا على تجاهله وإسقاطه حتى أصطدم بحقيقته المرة عندما أدرك تبلّد خمائل وذبولها بين يدي. في الجولة الأخيرة كادت هي أن تبلغ ذروتها لولا أنني استهزأت بنفسي .. أيقنتُ أن ما أبحث عنه ليس لأجلها بل لأجلي أنا ... هذه هي طبيعة الإنسان وحقيقة كلّ ما يدور في عالمي الخاص والمشترك معها.

لم يتغير شيء من ملامحها رغم أنها أظهرت نحوا من القبول والرضا وراحت تمارس عملها دون ضجيج. قررتُ أن أستأنف النوم لعل تلك الأحلام تستأنف هي الأخرى دورتها في مجهولي الشاسع الذي لا أقوى على بلوغه إلا وأنا نائم أو بين أكفّ المردة أو... في أعماق خمائل ودهاليزها الفائرة.

مساءا جاء هاشم محملا بأكياس مليئة بالخضر والفاكهة التي تحبها زوجتي. أظهر استغرابه من وجودي بصورة عفوية تجسّدت في حركته التي تشبه ما يؤديه البلهاء من حركات مرتجلة. ولدى جلوسنا لتناول الطعام اهتزت الجدران بفعل عملية قصف قامت بها إحدى الطائرات الأمريكية في ضواحي المدينة. امتقع وجه خمائل وبدت هلعة فحاول هاشم طمأنتها بالتأكيد على أن صواريخهم دقيقة للغاية ولا تستهدف سوى قواعد الصواريخ والمدافع المضادة للجوّ. بعد أن هدأت الأجواء عاد هاشم ليعادل الميزان فقد أطرى على قوات الدفاع الجوي وإمكانياتها التقنية المتعاظمة نتيجة للاهتمام الشخصي للقيادة ورغم

عدم إسقاطها لأية طائرة لحد الآن منذ أربع سنوات تقريبا إلا انه بشّر بقرب حصول ذلك خلال الأيام القادمة وهو عين ما كنتُ أسمعه من مجموعة من الموظفين قبل دخولي المعتقل بوقت غير قليل. بدأت خمائل بتناول طعامها بطريقة وئيدة ومهذبة للغاية لم أكن الاحظها من قبل. ولكن سرعان ما بدت فاقدة للشهية التي كنا أنا وهاشم نتمتع بها ، أخيرا أمضت وقتها في قضم تفاحة حمراء ولاطفها هاشم قائلا بلهجة فيها شيء من التهكم وهو يرمقها بنظرة حادة:

- يبدو انك تصرين على المحافظة على رشاقتك ... إنها موضة النساء هذه الأيام برغم أنف الحصار..

لا ادري إن كنتُ على صواب في إحساسي بأنها تجاهلته بطريقة غير معهودة، ربما تجاهلت شيئا آخر لا أعرفه. لكن المؤكد بالنسبة لي أنها نالت منه.. جعلته يبدو مضطربا ويلغ به الشعور بالحرج أن زجّ نفسه في حيرة مصطنعة، أراد أن يكمل قضية لم يتطرق لها ثم تظاهر بأنه نسي الموضوع . كانت تصرفات زوجتي وهاشم غريبة نوعا ما وبدا لي أن ثمة شفرات يجري تمرير رموزها أمامي باستخفاف من وقت لآخر دون أن اقف على خيط يربط بين ما أراه وأسمعه وما أختزنه في ذاكرتي من أشياء. قبل ان يغادر بوقت معقول فتح نقاشا حول موضوع قلما فتح مثيلا له من قبل. فمنذ أن تعارفنا إلى بعضنا في الدائرة قبل عدة أعوام كان حريصا على عدم الخوض في تفاصيل حياته الزوجية حتى بعدما توطدت علاقتنا وأصبح قضاؤه أوقاتا طويلة لدينا أمرا معتادا فكان يكتفي بالتعبير عن ضيقه بتصرفات زوجته ثم يهوّن الأمر بسرعة ويدفعني لتجاهله. لقد وجد في معيته كما قال هو في اكثر من مناسبة فرصة للهروب من الجحيم التي تنتظره في منزله. كانت خمائل ما تزال جالسة بعد أن رفعت بعضا من الأطباق وتركت البعض الآخر في مكانه، قال وهو يهمّ بإشعال سيجارته:

ان زوجتي تحمل المشاكل على الدوام.. ماذا بوسعك أن تعمل مع امرأة كهذه؟

طالما حدثني قبل اعتقالي وإلقائي في السجن عن مشاكسات زوجته وأفعالها المجنونة، ولكن لم اكن أتوقع انه في هذه المرة سيجتاز تلك النقطة التي كان يقف عندها على الدوام محتفظا بأسراره كرجل جبار يضفي عليه التكتم مسحة من الرهبة والوقار والأنفة. بعد لحظة صمت واحدة أضاف هاشم:

- لقد أضجرتني هذه الملعونة بحماقاتها... لا أدري إلى أي وقت يمكنني تحملها يا ثائر. إنها تتمادى يوما بعد آخر في تصرفاتها معي. تصور أن اسطوانتها الجديدة هي أنني واقع في غرام امرأة أخرى.

شعرتُ أن صاحبي يعاني من مشكلة حقيقية ما انفكت تؤرقه رغم لهجته اللينة والهادئة في طرحه لمشكلته مع زوجته. اردتُ أن أجاري صراحته هذه معي وقلتُ له بهدوء قريب جدا من هدوئه:

- بوسعك التفاهم معها وإثبات أنك لست واقعا فيما تدعيه ..أما إذا كنت مغرما بامرأة أخرى فمن الملائم أن تعترف لها وتحسم الموضوع.. اعتقد أن القانون الجديد يلزمك بإخبارها أيضا في حال عزمت على الزواج.

لاحت منه بسمة باهتة وأجابني بلهجة أكثر هدوءا:

- لا أفكر في الزواج أبدا.. رغم أن ذلك من حقي لا سيما وأنها لا تنجب... أما أن اقيم علاقة من امرأة ثانية فهذا شيء آخر...

قهقه هذه المرة بوجه خمائل على التحديد وانزوت هي في عتمة المشهد، بدت وكأنها تهرب من شيء ما ربما عبّرت عن رفضها للمنطق الذي يفكر به هاشم والذي نمت به كلماته السابقة. كان هاشم تلك اللحظات مصرا على بذل شيء من أسراره. كان شبيها برجل خالطت نشوة الخمر رأسه وأخذ يفقد اتزانه المعتاد لحظة بعد أخرى.

- من حقي أن أتمتع بحياتي كيفما شئت وليس من العدل أن تمنعني تلك القردة من ذلك. لن أسمح لها أن تحيلني إلى ملك جديد من ممتلكاتها.

وصفه لزوجته بالقردة ذكرني بذات الوصف الذي استخدمته خمائل تجاه زوجة هاشم .. ربما تكون المرأة قردة بالفعل لفك لغز تافه لتواطئ الأوصاف، لكن الحقيقة الأهم، التي أحسب انها قد فاجأت خمائل بقدر ما فاجأتني هو ما كشفه هاشم من أن البيت وبعض ما يمتلكه من محلات تجارية تعود ملكيتها لزوجته بالكامل. كنت اعتقد أن تلك الأملاك تعود لشخصه هو لا سيما أنه كان يتحدث بضمائر التملك حين يأتي على ذكر تلك المحلات التجارية بشكل خاص والتي ما أنفك يدعي انها مؤجرة بمبالغ زهيدة بسبب العقود الطويلة الأجل والمبرمة مع المؤجّرين منذ سنوات. عاود هدير الطائرات في الأجواء ثانية مختلطا بأصوات انفلاق القذائف المضادة لها. غير أنه استمر في حديثه رغم اصفرار وجه خمائل والخوف الذي تزمّلها معلنا عزمه على اتخاذ قرار حاسم وجريء لم يطلعنا على حقيقته وطبيعة العمل الذي ينوي القيام به. لا أدري لماذا دار في خلدي إن انفعاله النادر ولهجته الساخطة تلك لا يمكن أن تكون بسبب أسطوانة زوجته التي ذكرها. هجستُ أن ثمة مشكلة أكثر عمقا وتعقيدا من تلك التي طرحها بدايةً بلهجة هادئة تصاعدت مع وقت حديثه الذي كان مملا بالنسبة لي. في ساعة متأخرة تقريبا استأذن بالانصراف وانصرفت بعده خمائل إلى فراشها.

- 9 -

قال لي الشيخ راضي ذات وقت من تلك الأوقات الباردة في معتقل المديرية إنني رجل غريب الأطوار وتساءل الأستاذ أبو بلقيس عن هذه الغرابة التي لاحظها الشيخ. أذكر أن نقاشا دار بينهما وقد دخل كلا

منهما في تفاصيل المعلومات التي يحملها لتشريح شخصيتي. لم أفهم الكثير مما قاله ولكن من بين ما تطرق إليه الشيخ أنني أرى كوابيس يختلط فيها الواقع بالحلم وأنها من عمل شيطان مارد من الجنّ الخبيث. فيما خالفه الأستاذ أبو بلقيس مؤكدا أن هذا الزعم مجرد خرافة آمنت بها الأقوام البدائية وأن ما أراه ليس أكثر من اختلال في معادلتي النفسية بسبب ظروف الاعتقال وبشاعة التعذيب الذي تعرضتُ إليه. بعد انصراف هاشم وهجوع خمائل السريع قضيت وقتا قصيرا فوق السطح أراقب وميض تلك القذائف التي لا تزال حتى تلك اللحظة تواصل انطلاقها نحو نقاط مبعثرة في السماء خارج المدينة رغم غياب الهدير المعتاد الذي تصدره الطائرات، شعرت سريعا برغبة في النوم وعدتُ لألقي بجثتي المنهكة إلى جانب خمائل. كانت ليلتي ليلة كابوسية بكل ما للكلمة من معنى .. عفوا لا أرى لهذه الكلمة من معنى يذكر.. ما رأيته في النوم.. الهجوع... الرقاد.. إلى آخر أسماء السكون البشري التلقائي، الوفاة المؤقتة على رأي الشيخ راضي، أكبر من أن يحتويه وصف من أي نوع. لقد ولجتُ منتقلا إلى عالم آخر، عالم له أبعاده الواضحة ووحدات زمنه الثابتة وأشياؤه الخاصة التي تستقر في بؤرة الوجود الذي يمنحني الآن القدرة على وصفه. الغريب في هذه الكوابيس لو صح لي مثل هذا الجمع الذي يطيح بتلك الوحدة التي كنتُ فيها جزءا من أشياء هذا العالم هو أنها تكاد تكون دبلجة متقنة لشيطان الشيخ راضي، عبارة عن مقاطع منسقة من الصحو واللاصحو .. الحياة والموت .. الشعور بوجود حقيقي وآخر زائف... لكن هذه الثنائيات كانت متداخلة إلى درجة يصعب وصفها ويعسر الحديث عن أي منها دون أن يكون لما يقابلها ذات النصيب والقدر، نسبة ليس ثمة ما هو أكثر عدالة منها فكل شيء له حضوره دون أن يحتلّ شيء آخر من مساحته أو يزاحمه بوصة واحدة رغم أن كلّ الأشياء موجودة في مكان واحد ووقت واحد. اللافت

فيما رأيته وعايشته هو تلك العودة الممسرحة على خشبة الوعي لأحداث سبق أن رأيتها وعايشتها في وجودي الفرد منذ دخولي بناية المديرية وإلى لحظة خروجي منها. كنتُ مستلقيا إلى جانب لحمها المتوهج فاتحا عينيّ بكل قدرتهما على الأتساع أمام المشاهد المضيئة، جاءوا من ذات الباب وانتزعوني من بين أحضانها وزجوا بي في عربة مظلمة، الوجوه ذاتها التي دارت حول جثتي بوسمي هذه المرة أن أشاهد ملامحها بوضوح تام. فكل شيء يرتسم أمامي في نقطة محتومة لا تقبل التبديل والتغيير حتى ذاتي التي بدت شيئا خارجا عن ذاتي، لا أعرف كيف ولكنني أصدق ما أراه دون شك. حين ترجلت قسرا من عربتهم ساروا بي طويلا جدا في طرق ملتوية وسلالم عدة هبطتُ منها ونزلتُ إلى قدري... خاطبتُ ذاتي الأخرى التي تتحرك في مسار هذا الوعي الحادّ: إنها لعبة.. مجرد لعبة، فكل ما قطعته لا يعدو مسافة قصيرة في مربع البلاء. يدخلونني في غرفة صغيرة ثم يخرجونني من باب أخر إلى غرفة ثانية وهكذا يعودون بي إلى الغرفة الأولى... ثم إلى ممرّ فسلّم يرتفع بي إلى الأعلى ليهبطوا بي من سلم آخر إلى الأسفل، إنها متاهة للترحيب بكائن ضائع يقودونه إلى عالم لا أمل في العودة منه. والغاية أن تصاغ الأسطورة، أسطورة أنفاق الموت ودهاليز الرعب وفنّ التعذيب المعاصر في أرقى صوره وأبهى أساليبه الحديثة. بعد مدّة من الوقت... هذا الوقت لم يكن شيئا منطبقا تماما على وقتي الأول، كان مجرد فاصلة من فواصل الكابوس ويبدو أن ثمة خللا حدث في هذا الجزء فقد رأيت جثتي تتحرك بين القضبان وكان صوتي ينطلق بقوة ماردة معلنا براءتي من كلّ تهم القانون واللاقانون. لم تكن تتحرك على ما توحيه ذاكرتي تلك اللحظة وتماملت مع ذاتي الأخرى عن سرّ مثل هذا التلفيق غير أنني لم أحظ بإجابة مقنعة وبقيت مبهما. نظرتُ إلى خمائل وهي ما تزال غاطة في نومها للحظات ثم رجعت بنظراتي إلى ما وراء القضبان. كان الشيخ راضي والأستاذ

أبو بلقيس جالسين في زاويتهما مطرقين بصمت مخيف. بدأ استجوابهم لي في ساعة متأخرة من كابوسي هذا ، نفس الأسئلة التي لا يملون من تكرارها أبدا وفي نهاية التحقيق الشفهي تدور رحى التعذيب. كنتُ أنظر إلى جثتي وهي معلقة أمامهم في وضع الكابوس.

- من كانوا معك في العملية؟
- أية عملية..!

كان ردهم قاسيا فقد تلقيت ما لا يحصى من اللطمات والركلات الهوائية. لكنني لم أعترف بشيء لأنني لا أملك شيئا قابلا للاعتراف. فالحق أنها التجربة الأولى وما تزال هي التجربة الأولى رغم تكرارها المظلم. هدءوا قليلا وجلس ذلك المارد الرهيب ليدخن سيجارته. ترى أي نوع من الغباء أكرره في ذاتي حين أتساءل عن نوع سيجارته التي كانت بلا دخان إذ لم أر أثرا لدخانها البتة! بين صفعة جديدة وظلامها الدامس هلكت عيناي وانفجر السائل الأحمر من فمي.. أراه يسيل على ذقني وتنزل بعض القطرات إلى الأرض.

- اعترف أيها السافل..

و لم أجد شيئا اذكره من تجربتي ، اكتفيت بالنظر إلى جثتي واكتفت جثتي بالتأرجح هناك. كانت الأمور تعيد نفسها بدقة خلا بعض المقاطع الصغيرة والعابرة غير المؤثرة . لا أدري كيف اصف وجودي في عالم الكوابيس.. في هذا الكابوس تحديدا!. فقد كنتُ متواصلا مع وجودين منفردين في نقطتين مختلفتين تتحدان في زمن بائس. أشعر هنا بأنني أراقب نفسي عن بعد واشعر هناك بأنني أعيش تجربة عشتها هنا... هنا أو هناك .. لا فرق فأنا من يتكرر واقعا في أحداث مضت وأنا من أراقب تلك المسارات كمن يعيد فحص ذكرياته بجهاز لم يُخترع بعد..! اسقطوني إلى الأرض ثم ركلني احدهم، اراني أركل بقوة ورحت أصطدم باشياء كثيرة وأنا في طريقي إلى السقوط على نقطة أخرى. كانوا يتبادلون الحديث حول

قضية معتقل آخر وكنتُ أسمع طرفا من حديثهم، حواس المرء ليست سوى رغبات لا غير وقد كنتُ راغبا في أن أسمع... قلّبني أحدهم ثم قال بهدوء

- لقد فقد الوعي..

تحرّك مارد آخر من مكانه مشككا بفقداني الوعي. جاءت ركلاته المتلاحقة على خاصرتي .. فوق ظهري.. أخرى على رأسي. بدوتُ ميتا ، لم أشعر بشيء هنا أو هناك لم أشعر بشيء في جسدي لكنني أسمع أصوات الركل هناك وانظر من هنا. اختلطتُ مع أشياء عديدة أبرزها ذلك الشك الذي جعلني أعيد ذات السؤال الذي طرحته هناك من هنا.. هل ما زلتُ حيا أم أنني في البرزخ الذي من ورائهم؟! سحبني شيء ما إلى مكان آخر وأنا أستمع إلى أصوات غريبة تشبه صرخات النسوة على أبواب المآتم الشرقية، هناك رأيت زوجتي خمائل وبعض الوجوه التي تعاقبت على لحظتي الفاجعة حتى تلك التي صادفتها في أمسيات النفاق القديمة وليالي الثرثرة. في وقت جديد عادوا بي إلى تلك الغرفة المزدوجة الألوان ويدون مضيعة لهذا الزمن الغريب رأيتني معلقا كالدجاجة ثانية أمامهم بعد أن اوثقوا يديّ إلى الخلف وارتقمت كحيوان ينتظر السلخ. عندها أفقت من وجه خمائل وتلاشت الوجوه الأخرى دفعة واحدة.. أختفت أصوات النسوة .. ثمة جهة واحدة من الجهات كانت مركزة في خليط من الأعين والأفواه المزبدة.. كانت رغبتي هناك هي عينها التي كانت هنا لحظة ما.. رغبة في أن ينتهي الوقت ورغبة بأن لا ينتهي - رغبة في أن يتحول إلى شيء آخر لا تدركه الأفئدة والأبصار وهو يدرك الأفئدة والأبصار لكنهم جعلوا منه رائحة غريبة لم أعرفها من قبل رائحة تنبعث من كلّ شيء حولي.. من الأرض الملطخة ببقع الدم، من الجدران والأثاث التي ينبطحون فوقها من خلايا أجسادهم من نبرات أصواتهم وحركاتهم الباطشة من ملامح وجوههم المقرفة... كانت الرائحة

تنتشر في أرجاء الصور التي أبصرها وتلك المدفونة ألوانها في رأسي في اللحظات التي أتقلقل فوق بساطها مقلوبا على أيامي ومحترقا بذكريات مبهمة تخالط الله والأنبياء وملائكة الرحمة المقبين.. رأيتني من هذه المبعدة الكابوسية أصلي قبل أن يقبضوا جسدي إليهم ويمعنوا في تمزيقه. انقشعت لحظة عاهرة من لحظات تلك المحرقة وعاد الوعي إلى جزء من جثتي المعلقة وما أسرع إفاقتهم نحوي، ما أن طرفت عيني حتى نهضوا. شعرتُ بدفء آدمي يدبّ على صفحة وجهي وينساب بلزوجة مرحة إلى عنقي ثم إلى صدري لا أدري إن كان الموت يتحسس أوردة النبض، مكامن وجودي المبعثر. دنت تلك اليد من جزء ميت، جزء مات وانقطعت عنه الحياة قبل كل الأجزاء الأخرى.. أية إفاقة ماكرة كانت تنتظرني . تأرجحت في ذلّتي وأمام أعين مهابتهم الشامخة فلقوا رؤوس الشياطين واستقامت قاماتهم المديدة اكثر فاكثر.. اتخذت الأماكن ما يناسب تملقها تحت أرجلهم وبين صفعة خالدة في وجهي وأخرى اختفت آثارها قبل هذا الكابوس كانت صرختي:

- أجل ساعترف..

ثم تفوهت بنصف كلمة، بعض الأنصاف تأتي جاهزة، كاملة لا تقبل أية إضافة في الحقيقة لم اكن أعرف معنى لذلك النصف فتغلغلت أياديهم بيني وجلدي المدبوغ. سقطت عيناي على الأرض فتذكرت السماء. من يملك السماء، أقسمت لهم بملكوته به هو بالأقدار الثمينة بوحدة الذات بحرية الصلاة بالصوم بالملائكة الرابضين في أقطار السماوات والأرض.. لكنهم تساءلوا بجدّ عن هذه الأسماء الغريبة:

- هل سمعت بالملكوت؟

- كلا يا سيدي..

- ما معنى الملائكة؟؟

- أظنها نوع من الخمور مثل "الجنّ"
- أعطني كأسا وقرب الجهاز

أدار أحدهم شيئا بيده بعد أن وضع مقبسا كهربائيا في أول أجزائي الميتة المستسلمة للموت وسرت الصعقة.. اختفت الأرض وتبخرت السماء وبقي وجه خمائل.. لا أدري ما الذي كان يضحك خمائل تلك اللحظة! كانت مستلقية على فراشها كما هي الآن هنا إلى جنبي مانحة خصرها أقل مستوى لإنحائه ولأردافها أقصى بروز يعلن عن كفاءتها المرتفعة. كنتُ أتوحّل في جنون عارم يغتصب تلك الليالي التي كانت فيها خمائل قطعة من الحلوى الذائبة تحت لهاثي المخبول.. أتيمشر في صرختي في عويلي الذي يمنح عملهم مجدا مفعما باللذة والكبرياء. ويبزغ فجأة صباح الشيخ راضي مهللا لله، كنتُ قابعا في زاوية ما من ظلام دامس أسمع دعاء الشيخ وصلاته التي يعيدها مرارا عدة وكأنه ملاك مترف .. نبي لا تروقه الدنيا كما لا تروقني الآخرة هناك. سأله الأستاذ أبو بلقيس وهو يئنّ قريبا من جثتي

- شيخنا لماذا يمدّهم الله في طغيانهم؟

ويصمت الشيخ طويلا قبل أن يتلو خطبته الجبارة ذات الآيات المجلجلة والألطاف السابغة والرؤى المحققة والأسماء والحكايات والتواريخ. لكنه لم يخلص إلى إجابة تقنع أبا بلقيس ليعود سائلا إياه

- لماذا يمدّهم الله في طغيانهم يا شيخ؟؟

لكنني أرى الشيخ راضي يعود إلى صلاته ثانية، هذا ما فعله بالضبط. تواصلت تلك اللحظة مع ذاكرتي، بدأت أقرأ الأحداث قبل وقوعها بثواني معدودة. سأطرح سؤالي بعد أن وجدت لساني قادرا على الحركة: لماذا يكرر الشيخ صلواته بهذا الشكل ؟ بوسعي أن أميز بين الصلوات الخمس رغم أنني لم أصلِّ واحدة منها، وأجابني أبو بلقيس:

إنه يصادف، يروي سنوات الخمسين بين وقت وآخر.. لا بد من واحدة أو اثنتان تصادف وقتها المعلوم وتعانق كتابها الموقوت على المؤمنين.

كان وقع أقدام تقترب من جهة ما أعقبها صوت لأشياء صغيرة تسقط على أرضية الزنزانة كان أحدها قريبا مني جدا، خمنتُ انه حصاة صغيرة أو قشرة من الطلاء هوت بها رطوبة السقف. لكنني سمعت حركة الرجلَين وهما يصفقان الأرض بيديهما، تذكرت هنا أنه الطعام لكنني بقيت هناك في حيرتي فبعد أن سكنا في مكانيهما وانقطع الشيخ عن دعائه اندلع في أذني صوت من نوع آخر، صوت يدور في رأسي ثم يسقط في معدتي مباشرة.

- ما الذي عندكما؟

وأجاب الشيخ بحدة: زهر مرّ

لكنني عدت لأسأل الأستاذ بعد أن لمست وجوده قربي فهمس لي:

- لقد أكل الشيخ حصتك.

- أية حصة..!!

- حصتك من الديريات الثلاث[1]

شعرت بمرارة الغبن وتعاظم إحساسي بالجوع وكأن ما فاتني ليس مجرد تمرة يابسة، إنها وليمة دسمة خطفها الشيخ بأنانية واضحة. مرّ الوقت بشكل لا معنى له، قلما توجد أوقات لا تحمل معنى في الكوابيس التي يراها المرء. لكن كابوسي له ما يتفرد به.. فرادة المعنى الذي ينهمك في تكريره.. حكاية يسردها الله لعبد من عباده في حرمٍ روحي خاص. أخذوا الشيخ راضي وبعد أن انتهيت من تتبع شريطه الحيّ وتواصلت مع أشيائه إلى أدق تفاصيلها الممكنة عادوا به

---

[1] الديري نوع من التمور الجافة يخزنها الكثير من سكان جنوب العراق وتعاظمت قيمتها في زمن الحصار خصوصا لدى الطبقات الفقيرة المدقعة.

جثة نازفة وما لبث أن أطلق الفنان لهذيانه. الغريب في هذيان الشيخ انه باقة مضحكة من الكلمات والأوصاف الفاضحة تجسّد حقيقة الفرق الشاسع بين الوعي واللاوعي .. بين الإنسان كفكرة والإنسان كرغبة. توقع الإستاذ أبو بلقيس ان نهاية الشيخ قريبة، لقد حطموا شيئا من هيكله العظمي ومزّقوا بعضا من أحشائه وكدتُ اصدّق رأيه حين تقيأ الشيخ مزيجا من الدم والمخاط. لم يتسنّ لي مواصلة مراقبة حالة الشيخ فقد جاءوا ليسحبوا جثتي إلى ذلك المكان الذي يكتسي بأناقتهم ويترنح تيها برائحة خمورهم المفضلة وما تتركه المخلوقات الحالمة هناك بعد ان تعود إلى عالمها. أحاطوا بي وقد بدا لي إن وجوها جديدة انضمت إلى فريقهم.. وجوه محاطة بهالة من السيادة المطلقة تكاد تطيعها الجوامد لو أُمرت بالحركة والرقص. تصاعد هذه المرة مرحهم بتعاستي إلى حدّ لا يوصف ثم تألق زهوهم بتعذيبي ومرارتي.. عرّوني تماما وتقاسموا جسدي أجزاءً مرتبة متساوية الوزن فيما بينهم.. وعاندني الوعي دون مبرر.. فقد بقيتُ محتفظا بإحساسي كاملا حتى بذلك الجزء الذي انتصب كمهرج خائب فأطلقوا ضحكاتهم المتوحشة وراحوا يداولونه بين أصابعهم وعصيّهم المكهربة لكن ماردا عتيا من بينهم أقدم على رسم خريطة حمراء على جوانبه بموسى حادة واجتهد في صياغة أبعادها بطريقة محترفة.. تدوي الضحكات في أعماق الملحمة وتتحرك خمائل في مخدعها .. وتحدق أعينهم أسفل مني .. لطمة ثقيلة على وجهي قبل أن أرى عضوي وقد قطعوه ليغرسوه في عيني. قال واحد من أولئك الرابضين في الخط الخلفي: سندخره لك في الأمانات وإذا متّ سندفعه إلى زوجتك.. ثم تعالت القهقهات وقهقهت معهم ... قهقهت مع المردة بكلّ ما أوتيت من قوة القهقهة وسكرت في ضحك لا يكاد ينقطع، انقلبت جهة خمائل والتصقت بها.. بمزرعتي البور، بشغاف قلبي الممزق وكان لا بد لي أن أصرخ: أعيدوه.. أعيدوا لي عضوي المقطوع.. أعيدوا معبر

روحي إلى خمائل أيها العناء الظلمة. اجتمعت في يدها وتراخى ذلك التواصل المزدوج لأنكشف على ذاتي ممسوخا في ضباب الأمكنة والأزمنة متشبثا بفراغ يعتصر وجودي. لكنها جمعتني بشراسة القطط ودفعتني إلى منطقة الصحو المليئة بمجهولات تركتها للتوّ. أفقتُ من هنا إلى هنا ووقفت أمامها طليقا من هذا الكابوس الذي أزعجها. قالت بصوت مبحوح، لا أدري ربما أمضت وقتها في الصراخ، إن عليّ مراجعة الطبيب فأنا لستُ طبيعيا في نظرها. أقسمتُ لخمائل بأن ما حدث لم يكن أكثر من حلم كابوسيّ يحدث لي للمرة الأولى. كابوس غريب لا أجد معنى يذكر لتفسير أحداثه وتفاصيله شأنه شأن الكوابيس التي يراها عباد الله وأخيرا أظهرتْ شيئا من الاقتناع بما قلته وعدنا معا إلى الفراش دون التصاقات تذكر.

جاء الصباح محملا بأصوات الانفجارات وهدير الطائرات الذي استمرّ حتى الظهيرة. كنتُ أجوب باحة الدار وكانت خمائل تهرع إليّ بين الحين والآخر مؤكدة أنها شاهدت صاروخا يقع في مكان ما قريبا من الحيّ في المرة الأخيرة أصرّت على أنها رأته ينطلق من الطائرة واصفةً لي المشهد بشيء من التفصيل وهي ترتجف. كانت فرصة نادرة أن يجتمع جسدانا تلك اللحظة لغرض واضح، فقد أخذتها بين أحضاني لأهدّئ من خوفها وخوفي. ما أحيلاها وهي تحتشد بين أذرعي .. تطرح كلّ مرونتها مخضلّةً على ضفاف حجارتي... لثمتها بحرارة وازدادت هي نعومة وتهدّلا بين يديّ. لكنّ صاروخا غاشما أمرّته السماء فوق رؤوسنا ليجعل مني أضحوكة لها، فقد تحولت إلى ورقة في مهبّ رائحة البارود التي ملأت الأجواء وطارت الورقة بعيدا عن جسد خمائل.... تمالكت نفسي ونهضتُ لأجدها واقفة بثبات رغم هلعها.. على الأقل كان لها أن تفاخر بأنها لم تسقط مثلي، بقيت متشبثة بقامتها تحت القصف فيما هويت أنا مراقبا دائخا كالنعجة. كان الشارع قد امتلأ بالضجيج وحشود من الناس توجهت نحو

مكان سقوط القنبلة. أولى المعلومات التي تلقتها خمائل من جارتها أن عددا من البيوت قد أبيدت عن بكرة أبيها وراحت تسمّي بعضا منها. خرجتُ قاصدا المكان على هدي الحشد الذي كان اغلبه من الأطفال والشباب. لم يكن ثمة شيء غير الركام المشتعل ورائحة الدخان والأعين التي تتفرج ببلاهة. بيتان معزولان أمام نهاية أحد الأزقة كانا هدفا للموت والدمار وبدا أن أفرادهما قد قضوا جميعا فلم يكن ثمة صوت يئن أو يطلق صرخة استغاثة في المكان. مرّ وقت مملّ وأنا أقف مراقبا المشهد قبل أن انتبه لخمائل وهي تقف إلى جانبي مذكرة إياي بموعد ذهابي إلى العمل. في تلك اللحظات سمعتْ مجموعة من الصبية صوتا بشريا في زاوية من زوايا الركام ما أثار حميّة شخصين كانا واقفين قريبا مني وأخذا بالتحرك. طلب الرجلان مني المشاركة في التحري عما يقال أن ثمة أصوات تنطلق من وراء الأسيجة المهدمة وكتل الطابوق المتناثرة لكن خمائل ابت إلا أن انصرف وأطعتها على الفور.

-10 -

كان الوضع العام متوترا داخل الشركة، رجال الأمن والحزب أكثر نشاطا وحركة مما كان في الليلة السابقة الأمر الذي يوحي بوجود إنذار عالي المستوى من قبيل الإنذارات التي يخبرها موظفو الدولة. وفي العادة فإن الأوامر تصدر بوجوب التأهب وتشديد الإجراءات الأمنية دون سبب معروف. دار في خلدي للحظة إن ثمة علاقة بين هذه الإجراءات وما حدث منذ الصباح وحتى المساء من عمليات قصف وكثافة المواجهات النارية بين طائرات التحالف والمضادات الأرضية لكنني سرعان ما أطحتُ بهذه الفكرة فمثل هذه المواجهات أصبحت أمرا مألوفا منذ ما يقرب من أربع سنوات في حين يدقّ المسؤولون أجراس إنذاراتهم حتى في أشدّ الأوقات هدوءا في

السماء والأرض. وضعت القدر الصغيرة التي زوّدتني بها خمائل في الدولاب العتيق الذي قيل لي انه أصبح خاصا بي، كانت زوجتي قد أعدّت لي هذه المرة تركيبة لا بأس بها لملمتها من بقايا عشاء البارحة الشهيّ وما تبقى من وجبة الغداء. فيما جلب أبو ليث طبقا صغيرا من كبسة الباذنجان والطماطم مع راسي بصل قال إنهما جزء لا يتجزأ من هذا الطبق وكانت وجبة السيد احمد هي الأشهى بما حوته من كباب منزلي وسلطة مخلّلة. أما أبو كرار فاكتفى بإخراج عدة قطع من الخبز أضافها إلى السفرة حين اتفقنا على الجوع معا بطريقة استجداء وتملق شعرت معها بشيء من الخجل لا سيما انه لم تكن ثمة حاجة لهذه الإضافة الباردة. قال أبو ليث وهو يشغل فمه بلقمة كبيرة :

- الجماعة لديهم إنذار الليلة.

وردّ السيد أحمد متهكما:

- كثرت الإنذارات هذه الأيام.. صدقوا يا جماعة الخير إنها لعبة ولن يحدث شيء.

تبسم أبو كرار الذي راودني من أمر سكوته ونظراته نحوي شيء من الخوف قبل أن يشارك برأيه المؤيد لما قاله السيد أحمد:

- ستقع في رؤوس الفقراء لن يمسوه بسوء إنها لعبة مكشوفة.

اتضح لي عندها إن تهديدات بمواجهة جديدة تتردد في الأخبار وقد تنتهي بتوجيه الأمريكان ضربة جوية لعدة ساعات أو أيام ثم تعلن الحكومة موافقتها على الشروط وتهدأ الأمور بانتظار مواجهات أخرى مشابهة. حاولت أن أضع نقطة ختام لجملة الرأي الذي طُرح

- لا جديد في الأمر، سيوافق ويوافقون ثم يعود ويعودون وهكذا هي حتى النهاية.

خالفني السيد احمد في النهاية.. فنهايته كما يراها لها نهاية دون شك ونهايتي كما رأيتها تلك اللحظة وتشبثت بها حدّ الحماقة أنها مطلقة لا بداية لها ولا نهاية. لم يكن الجوّ وطبيعة العمل كما كان

في الليلة السابقة فقد كانت حركة رجال الأمن والرفاق الحزبيين حركةً دؤوبة حتى الفجر فيما أعطيت لنا واجبات إضافية كالمشاركة في تفتيش العربات الداخلة والخارجة مهما تكن ومراقبة المنافذ الأمامية للشركة جميعا بشكل فردي تؤدى بصورة متناوبة جنبا إلى جنب مع عناصر الأمن والدفاع المدني والتبليغ عن أي حالة مثيرة للشك وإن تكن على مبعدة من الشركة وسياجها الخارجي وإلا تحملنا المسؤولية كاملة عن أي خرق أمني. لا أدري إن كانت بعض تلك الواجبات هي من صلب عمل هؤلاء الحراس، ربما أكون قد نظرت إليها كونها واجبات إضافية مقارنة مع واجبات الليلة الفائتة؟ ولكن على أية حال فقد لاح الضجر والتأفف على الأوجه الثلاثة التي معي لا سيما وجه السيد احمد الذي أظهر تبرمه بل واعتراضه على مسألة تفتيش السيارات كونها من مهمات المجموعة التي تحرس المدخل وخوّض بعد أن ضاق ذرعا بتكرار تلك الأوامر في نقاش حاد مع أحد المسؤولين لم يغنم منه في النهاية سوى جملة تهديد ألجمته وجملته يكاد يكون شخصا آخر.

كنتُ أقف عند أحد المداخل حين طلب مني رجل الأمن المسؤول عن مجموعة من عناصر الشرطة أن أذهب في مهمة لاستطلاع الوضع بموازاة السور الخارجي للجهة الغربية من حدود الشركة إلى نهايته.. إلى نهايته قريبا من سكة القطار، وأكد على ضرورة إطلاق بوق التنبيه عندما ألمح أي شخص يتجول في المكان الذي لا يتصور أن يقطعه سوى اللصوص والمخربين وفي حالة الضرورة عليّ استعمال السلاح والضرب نحو الهدف إلى حين وصول التعزيزات. طرح الرجل تعليماته بلهجة متعالية وبأسلوب رسمي يتضح من المفردات التي استعملها في أوامره، وأنهى كلّ ذلك بزجرة ترددت في أذني لوقت طويل. لم أشعر تلك اللحظة بأنني في واجب حراسة في منشأة مدنية بل كنتُ وسط معركة في جبهة قتال مفتوحة، بعد بضعة خطوات

هرولت بحماسة لتأدية الواجب وانغمست في نكهة مارد يمارس أفضل ما لديه من حركات استعراضية أمام مسؤوليه. استنفرتُ حواسي بصورة مضحكة وتغلغلت في عتمة المكان واضعا صافرة التنبيه في فمي ومهيئا السلاح لأي طارئ يمكن أن يقع في أية لحظة. كانت المسافة التي تمثل طول السياج الخارجي من تلك الجهة أطول مما توقعت فبعد سير حذر لوقت غير يسير تبددت تلك الحماسة التي كنتُ أرتوي من إنعاشها المباغت غير المسبوق وأخذ الخوف يتسلل إلى أعماقي من جهات المكان جميعها. كانت الجادة التي أسلكها تتلوى تحت سفح الطريق العام الخالي من كلّ شيء سوى أبراج الإضاءة التي كانت مطفأة ذلك الوقت، بدأت أتعثر بالصخور والأحراش المبثوثة بين سياج المنشأة والسفح الترابي للطريق الموحشة وفكرتُ في العودة لولا الخوف الذي رسمته لي ذاكرة الألفاظ والأوامر .. عليّ استطلاع المكان بموازاة السياج إلى نهايته .. إلى نهايته قريبا من سكة القطار. وفي هذه النهاية كان لي القدر بالمرصاد، لقد كانت نهاية بالفعل وبكل ما تعنيه الكلمة. فبعد أن تأكدتُ تماما من وصولي إلى هناك حيث ينعطف السياج الشاهق في تلك النقطة ليبدأ مسافة جديدة خارج مهمتي أعدتُ أدراجي مكررا خطواتي السابقة وعلى الفور لمحتُ شبحا يتحرك باتجاه السياج هابطا من الطريق العام، كان عليّ تنفيذ الأوامر دون تردد وإلا فلن أسلم من سخط هؤلاء المسؤولين وعقابهم الذي لا اعرفه من أي نوع أو صنف يكون ربما يحيلون قضيتي إلى المديرية بعد أن يعطوها اسما ملائما. لم أفكر في استعمال صُفارتي رغم أنها كانت في فمي. لم يكن هذا غباء أو ارتباكا على الإطلاق. فقد فكرت.. فكرت مليا كما يفكر القادة، قبل تلك اللحظة المدوية، بأمر الصفارة وقررت عن سابق إصرار عدم استعمالها لكون الغاية تنبيه الشرطة والحرس الذين يقبعون أمام المدخل للتحرك وبما أنني على مسافة أجزم أنني لا امتلك تلك النفخة السحرية التي يمكن

أن تصدر صوتا يجتازها ليصل آذانهم دون أن أنبه هذا اللص أو المخرب ليهرب أو ليتمكن من قتلي وحسب. صوّبت السلاح نحو تلك القامة التي لم تنحنِ بل واصلت ثباتها وهبوطها الوئيد إلى الجادة التي كنتُ أسلكها قريبا من سياج الشركة. ضغطتُ مباشرة على الزناد وانطلقت رشقة من الرصاص فيما حثّت الخطى بعدها تجاه الهدف. لكنني توقفت فجأة، اصطدمت بكتلة العالم كله ..لفظني جلدي ولبسته مرارا، انحنيتُ أمام هذا القدر المبطل لحقيقتي واندثرتْ في داخلي معالمُ وجودي بعد أن أطلق الشبح صفارته وهو ممدد على الأرض أعقبها بإطلاق بعض الأعيرة في الهواء وصيحات شرسة قاسية...أيقنت أنه لم يكن سوى أحد الحراس من المجموعة التي كنتُ معهم عند المدخل. لم يسعني الاقتراب فقد تجمدت أطرافي تماما لا سيما ان قامته لم تلح لي كما كانت اي أنني وببساطة قد أصبت الرجل في موضع ما من جسمه. أي حكاية هذه يمكن أن تُروى لخمائل ! ومن ذا الذي يصدق أنني كنتُ مخلصا في أداء المهمة التي كُلّفتُ بها على أكمل وجه؟ سيجرون معي تحقيقا طويلا لن ينتهي إلا في بناية المديرية وعلى يد أحد المردة الذين قطعوا وريد الشيطان من جسدي وجعلوا مني شيطانا ناقصا لا سرير له في ليل الأرض المليء بالأسرار اللزجة والحكايات المرويّة لأوثان حواء. شعرتُ ان حشدا من المردة يحيطون بي من كل حدب وصوب، آلاف الصرخات الغابوية تنطلق من افواههم، وتلمع الموسى في عيني.. أتحول إلى قطع مركبة ملتصقة إلى بعضها بعضا وهاجس قوي بانّ يدا ستطال هذه التركيبة لتضربها في الصميم. ستنفي جزءا آخر مني إلى مكان ضائع خلف العالم. قررت تلك اللحظة أن أهرب. لا سبيل غير الهروب من هذه المجزرة المنتظرة لأعضائي. ولكن سيلحقون بي ولا شك... فاختفائي بهذه الصورة دليل قاطع على أنني الفاعل. قبل أن أقوى على استعادة مفاصلي والتحكم بأطرافي رأيت الرجل ينهض من

مكانه وهو يصرخ بي أن اكف عن إطلاق النار...و صمني بالغبي والأرعن بالسخيف والتافه بأوصاف أخرى اخترعها لم أعرف لها معنى ظاهرا. ادركت بأنه لم يصب إصابة خطرة وكانت مشيته التي رأيتها بوضوح قاطعة بأنه لا يعاني من إصابة في أطرافه كما خمنت. اقترب مني اكثر وهو لا ينفك يردد نعوته الواصمة وتهديداته الحازمة تجاهي. تحررتُ من النقطة التي تركزتُ فيها ذرًا تافها وبدأت باستعادة شيئٍ من حجمي الطبيعي. حين وقف أمامي أمطرني بسيل من الكلمات البذيئة لكن ثمة خيطا رخيصا من المزاح كان يشدها في نسق غريب ذكرني بشخص مقيت نكّد عليّ أيام دراستي في الثانوية الذي كان يشتمني في ذروة مزاحه معي ويمزح معي في ذروة مشاجرتي معه. في طريقنا إلى المدخل التقينا بعنصرين من عناصر الدفاع المدني الذين أرسلهما المسؤول الأمني للوقوف على سبب إطلاق النار الذي تناهى إلى أسماعهم. ولم يتردد الشرطي في اتهامي بمحاولة قتله عن عمد زاعما أنني كنتُ قد رأيته بوضوح بزيه المألوف وسلاحه وأنه أطلق صفارته قبل إطلاقي النار نحوه الأمر الذي أنكرته على الفور لكن الرجلين حدجاني بنظرة بغيضة وهمس له أحدهما بشيء لم افهمه. كانت السماء كتلك المسافة المظلمة ملبدة بغموض الله وبهاء المردة .. صمتٌ وسكون يثيران الفزع فيما كان الجوّ يمنع الأشياء درجة الحرارة اللائقة لاستقبال المطر. عبأت نفسي في فكرة لقاء المارد الذي ينتظرني.. كيف لي أن اقنعهم بأنني لم اكن أحاول اكثر من تأدية مهمتي بشكل كامل ولم أتعمد إطلاق النار على زميلي هذا!؟ هل يصدقني ذلك المارد ويكذب أحد رجاله!

كثيرا ما كان الأستاذ أبو بلقيس يردد أنني من النوع الذي لا يحسن الدفاع عن نفسه. وأن صمت أمثالي خير ألف مرة من الحديث ولو بآيات الله البينات أو كمثلها تعالى كلام الله عن أمثالي. تذكرت كلام الأستاذ وأنا أقف مرتعدا بين ذلك الحشد الذي طوّقني

وأحكم من حولي حلقة الاتهامات والتوبيخ القاسي وحبك النوادر على هيئتي وبعض المقاطع التي أتفوه بها قبل أن ألوذ بالصمت طبقا لنصيحة الأستاذ التي قفزت بغرابة إلى ذاكرتي وأنا في قفص جحيمهم. في نهاية المطاف تباعدت قضبان أجسادهم بعد أن قرر الضابط المسؤول عن مجموعة الحرس التي أنتمي إليها فتح تحقيق والنظر في قضيتي دون تحديد الوقت أو المكان وكلّ ما قمتُ به أن وقّعتُ على ورقة لا اعرف شيئا من محتواها. في الساعة الثالثة وبضعة دقائق عدتُ إلى غرفة الحراسة لأخذ قسط من الراحة بتوسط من السيد أحمد الذي صحبني إلى باب الغرفة محاولا التقليل من شان ما حصل وعدم المبالغة في القلق من موضوع التحقيق إلا انه أضاف بعد كلّ جمله السابحة في دعة من الطمأنة والتهوين القول إن كل شيء متوقع صدوره من هؤلاء...

لم أكن في تلك الغرفة وحدي، الحق الذي لا مراء فيه أن ثمة من يقاسمني المكان. كان في البداية مجرد شعور جرّدت سكينه الحادة مجموعة من التصورات الخرقاء. كنتُ مسيطرا تماما على عالمي بأبعاده وصوره ومعانيه ولم أتشتت إلى أمكنة وأزمنة أخرى .. كنتُ كتلة واعية من الأفكار الجادة تمدّ أواصرها المتشابكة في بحبوحة من الصفاء والوضوح التام وإن خالطها شيء من تململ يدبّ على هسيس ذاكرتي. لكنني أبصرت ذلك المحقق الغول فجأة يطلّ من بين الأشياء الصامتة التي تزدحم بين الجدران، يلوّح لي بفتح التحقيق وبصوت مرعب طلب معلومات واضحة عن هويتي الشخصية .. الاسم ..العمر .. التحصيل الدراسي والوظيفة ثم العنوان الدقيق الذي يجب الا يختلط بعناوين العباد. مثلتُ في حقيقتي واضحا أمام عينيه بكل أجزائي المعلومة. لا يبدو انه يشك مجرد شك في أنني أجلس قبالته في تلك الزاوية الرطبة. كانت حركاته تنمّ بثقة واعتداد بالغ بالنفس وهو يحدّ النظر إليّ. أدركت أنه سينزل لعناته فوق رأسي وسيباغتني

بلحكمة على وجهي بين اللحظة والأخرى. لن اسمح لهذا التاريخ المسخ أن يعيدني طبَقاً من الفضلات النتنة على موائدهم. لن اغفل عن الجريمة التي تحاك خيوطها في ظلام قسوتهم وعنجهيتهم ضدي .. لستُ بليدا إلى الدرجة التي اقيّد فيها كلّ مرة دون أن يكون لي رد فعل مناسب تجاه أفعالهم الحمقاء. حدّقتُ بوجهه، املك ذات الشارب الذي يغطي شفته العليا، املك الأعين والآذان ونفس الجمجمة القردية التي يملكها... ربما افتقرُ إلى كتلة الشحم المتهدلة تحت ذقنه ولرقبته الغليظة لكنها لا تمثل فرقا كبيرا على أية حال. فلماذا أستسلم إلى هذا اللعين! لماذا أستسلم له الشيخ راضي والأستاذ ابو بلقيس !! ماذا كان ينقصهما .. لماذا يتخاذلان أمامه ويصغران حدّ أن وسعتهما قدمه القذرة! درتُ في خليطي من الأوقات السابقة المتحدية وامتزجتُ بنفسي امتزاجا محضا، قد لا يبدو مثل هذا الأمر واضحا قدر ما أشعر به ولن يضاهيني أحد في معرفتي بهذا الجزء المنبثق من حيويتي كرجل واثق من قدرته على اقتحام المردة والنيل منهم. وقفتُ متربصا بلحظته الماقر وصدق توقعي... لا بد له من لحظة عاقر.. رأيته يوصد الباب تاركا ظهره مكشوفا أمامي بحماقة واضحة وانقضضت عليه بكل قوتي ضربته على رأسه بقدر الطهي الذي تركه ابو ليث على الطاولة. لكنه لم يفقد الوعي كما خمنت بل صرعته لوثة حيوانية انقلب خلالها إلى وحشٍ كاسر ودارت رحى معركة ضروس... تحطمت الطاولة والآنية وتبعثرت الأشياء في مساحة الغرفة هنا وهناك، وأخيرا تمكن الملعون مني وراح يطبق عليّ من الجهات الأربع.. حاول خنقي بيدين من حديد ولم يكن لي من خيار سوى أن أغطّ في اللاوعي.. أرحل باختياري إلى مكان آخر تاركا له حرية اللهو.. اللهو لا غير.

مسترقا السمع إلى نفسي، محترقا بخيبتي ومرارة فشل لاذعة تبسط هذا الكائن الذي هو أنا أمام الأعين... هل اجهل ما حدث

حقا؟! ألم أكن في وعيي التام حين اخترت المواجهة مع مارد التحقيق؟!
هل أقول لهم هذه الحقيقة وهم يجتمعون حولي.. سمعتُ أبا ليث يقول:

- مسكين يبدو أن لديه حالة صرع

ويجيبه أبو الشلغم بضراوة :

- كيف يقبلون بحارس مصروع..!

ويتدخل السيد احمد بلهجة لم اسمع بها من قبل:

- أستاذ إنه مجرد حالة نفسية للمسكين.. علينا أن نبعث به إلى المشفى.. ماذا تقول؟ أهاتف الإسعاف؟

لكن أبا الشلغم يأبى بلهجة حازمة ويقترح نقلي إلى البيت ويضيف:

- عليه خسارة كلّ ما حطمه هنا وسأراجع الأمر مع السيد المدير

أعدتُ وعيي بلمح البصر وتحركتُ قليلا في مساحة جسدي. لم أستغرق سوى بضعة ثواني حتى تمكنتُ من الحديث بصورة متوازنة. كانت نظراتهم مبهمة بالنسبة لي وبعد سلسلة من الآراء المتباينة قرر ذلك المسؤول الشلغمي أن يوصلني أحد الحراس بسيارته الشخصية إلى البيت. كان الرجل شابا وسيما تبدو مظاهر الترف واضحة بدءاً من سيارته الفارهة إلى أناقته وخدوده المتوردة وانتهاء بصندوق كامل من النبيذ رأيته موضوعا على المقاعد الخلفية. لم ينبس الرجل بشيء واكتفى بالتأفف من حين خروجنا من الشركة وحتى نزولي من سيارته عند الزقاق الذي يقابل الصيدلية التي كانت الوحيدة في الحي. سرتُ بخطوات متهادية... لم يسبق لي أن عدتُ إلى البيت في ساعة متأخرة كهذه. ترتبط هذه العودة بصور الماضي الغابر من طفولتي... ألمح بعض الوجوه من رجال المحلة الذين يقال أنهم يدمنون السكر وتكون عودتهم في هذا الوقت بأجساد متمايلة قد يسقط بعض منها في مجرى المياه ويبقى هناك حتى تُنتَشل عند الصباح وتشيع أخبارهم مترددة على ألسن النساء في اليوم التالي. رأيت ذات صباح واحدا من أولئك حين بعث بي والدي لجلب الخبز من فرن قريب. كان

يدعى أبو يحيى رجل في الأربعين او يزيد ذو شعر كثّ ولحية شبه بيضاء، ارتسمت ملامحه أمامي وفوجئت بالشبه الرهيب بينه وبين أبي الشلفم. رغبة غامضة دفعتني لتقمص شخصيته وهو عائد بجسده يترنح تحت جنح الليل... وأخذت بالترنح، شعرت كأنني في نشوة خمر حقيقية وخالطني توق غريب إلى جسد خمائل. تُرى ما يكون ردّ فعلها لو أنني دخلت عليها مترنحا مفتعلا لحركات السكارى وإيماءاتهم وتلك الشهقة التي تهزّ أكتافهم! وقفتُ أمام الباب وشاءت رحمتي أن أفتحه بطريقتي فلا شك في أنها تغطّ الآن في نومها... ما أشهى خمائل وهي نائمة.. يا اللهَ كم تبدو زواياها مثيرة إلى الحدّ الذي لا يطاق وهي غافية بثوبها الذي يشف عن أسرارها .. عن وديانها وتلالها.. تتبعثر خمائل على السرير بشكل يمنح أقصى حدود اللذة عند محاولة جمعها وتنسيق باقاتها. دخلتُ وأنا احرص على عدم إثارة أية ضجة تقلقها وتعكر صفو أحلامها.. ربما لم يكن هوسي هذا برؤيتها الفاتنة السبب الوحيد لرغبتي في التسلل بهدوء وعدم إيقاظها، فلا شك أنني لا أعرف ما أقوله لتبرير عودتي الغريبة والمبكرة هذه مع أن هذا السبب قد يبدو نظريا وحسب فالهوس لا يُزاحَم بأشياء تافهة من هذا النوع. تمكنت من فتح الباب الخارجية وإغلاقها دون ضجيج ونقلت خطواتي في داخل البيت بحذر يشبه حذر اللصوص. لم تكن أضواء المنزل مطفأة في الداخل والراجح أن خمائل تعمدت إبقاءها مضاءة فالظلام قد يشعرها بالخوف كأية امرأة أخرى... كأي ملاك أرضيّ يخاف الشياطين ولا يقوى على الحياة إلا في الضوء. كدتُ أن افلح في مسك مقبض باب غرفة المطبخ لأديره بعد أن مددتُ يدي من ثغرة وسّعتُها في النافذة المعبأة بقطعة خشبية من الفيبر كلاس بدل الزجاج أملا في الا تكون خمائل قد قامت بقفله بالمفتاح من الداخل وهو احتمال بعيد... لكنني لم أفكر في استبعاده إلا بعد أن عجزتُ عن مسك المقبض.. وإذاً.. فلا مندوحة من الطرق على الباب

وإيقاظها. سحبتُ يدي من داخل النافذة وحاولتُ إعادة اللوح الخشبي إلى مكانه بهدوء وحذر رغم أنني قررتُ طرق الباب. لم تخرج يدي تماما علقت بشيء ما... شيء لا يمسك الأيدي في العادة لكنه أمسك يدي.. ليس بوسعي أن أعيدها إلى حيث كانت معي، لقد شلّت تماما كغيرها من أعضائي في الخارج لتزيد من هدوئي وتفسح المجال للقدر أن يمارس هوايته بي، أن يؤكد ذاته وخرافته...لم يكن من صلصلة الجنّ ولا من نوبات صرعي المزعوم، لقد كان محض حقيقة مؤكدة تلقفتها بوعي تام ولا مجال للطعن والشك فيها أبدا.. لقد كان صوت خمائل.. ضحكة هستيرية فاضحة تخللها صوت رجاليّ يدعوها برجاء لإكمال شيء ما لا أعرفه. لا أدري كم مضى من الوقت وأنا مصلوب أمام النافذة استمع إلى ضحكات خمائل المدوية وكلام الرجل الذي لم أعِ شيئا مما كان يقوله لها، لكن تركيزي على إرهاف السمع منحني الفرصة ليفغل الشلل عن أعضائي وأعود شيئا فشيئا إلى تحريكها والتحكم بها. انتصبت في زاوية من المكان وما تزال ضحكة خمائل تثقب جمجمتي تلتف مثل أفعى شرسة حول عنقي، حدّثتُ نفسي قليلا وتصورتني اثنين يتحاوران، ازدواجية لا شعورية للهرب من ذات واحدة إلى لا شيء:-

- ماذا ستفعل؟
- عليك الهدوء أولا ثم التفكير بالخطوة القادمة.
- أجل عليّ الهدوء ولكن ...هل تصدق ما تسمع!
- أجل لا مجال للشك إلا إذا كنتَ مخبولا
- لستُ كذلك
- تأكد من الحقيقة بنفسك، أذهب إلى الممر الخلفي وانظر من نافذة غرفة النوم...
- لا توجد إلا ستارة صغيرة هناك سأنظر
- ولكن بحذر..

ذهبتُ من خلال الممر الجانبي إلى الفناء الخلفي للدار حيث نافذة غرفة النوم الغرفة التي أكاد أكون متيقنا من أن صوت خمائل قد صدر منها على وجه التحديد. وقفت إلى جانب النافذة واختلست النظر من مساحة صغيرة أزيحت عنها الستارة إلى الداخل. لم تقع عيني على زوجتي فقد كان ثمة جسد عاري لا اعرف أين يكمن راسه لكنني رأيته هو.. رأيت وجهه بوضوح كوضوحي في هذا الكون... إنه هاشم، هاشم.. الصديق الذي امتدحته خمائل بكونه الأوفى والأصدق من بين كل الناس الذين نعرفهم. غيّر الاثنان من مكانهما وجلسا على حافة السرير كانت خمائل قطعة من اللحم النيئ أشعرني بقسوة الجوع الذي أعاني منه جاثية على قدميها وهي تبتسم في وجهه الصامت. وما لبثت أن بدأت مغازلتها له... دغدغت سرّه وأطبقت عليه بشعور واضح من نشوة الامتلاك اللذيذة... لم يكن بمقدوري تلك اللحظة أن استمر في مشاهدة ما يحدث.. لكن بوسعي التأكد من أن كلما كنت احلم بأن تفعله خمائل من جنون قد فعلته ولكن ليس معي بل مع هاشم.

قررت الخروج من منزلي والتسكع في الأزقة حتى الصباح. في أحد الأزقة أصابتني نوبة من الصرع كما سمعتهم يصفونها في المنشأة ولكنني لم أغب عن الوعي.. إلى أن عدتُ إليه عند بزوغ الفجر.

-11-

عندما فتحتْ لي الباب رحتُ أتأمل ملامحها ، أحسستُ بحقيقة أن غبائي لا حدود له ، فمن ذا لا يدرك مقياس حواء الشهويّ ويقرأ درجاته الواضحة! لقد بدت خمائل متخمة تعاني من بقايا ارتعاش طياتها الداخلية وإن إرهاق الفراش له ما يميزه عن غيره. كانت تتمايل في مشيتها تمايلا غريبا وكأنها لا تزال غارقة في حلم ما.. ردت على

تحيتي بجفاء وعادت إلى السرير بدعوى أنها تشعر بصداع لن يزيله سوى العودة إلى النوم. آثرت الصمت والتفكير بأعصاب هادئة والحقيقة أنني لم أجد حافزا يدفعني إلى مكاشفتها بالأمر ومباغتتها بهجوم شامل ولا بد أن يكون نهائيا أيضا .. كنتُ أشعر بذهول وفتور غريبين وكأني تحت تأثير قرص من تلك الأقراص المخدرة التي أدمنتها فترة من الوقت وبنصيحة من أحد الأطباء. كان حريا بي ألا أطيق النظر إليها لكنني على العكس من ذلك تماما رحت أختلس النظر إليها وهي مستلقية في مخدعها، كنتُ في اختلاسي النظر وكأني أهتك حرمة امرأة غريبة يتهددني عقاب من نوع ما فيما لو افتضح أمري بشأنها. وأخيرا خلوت بنفسي في الغرفة القديمة المهجورة التي تفضل خمائل تسميتها بالمخزن، هناك أعدت شريط البارحة وفي مقطع منه قفزت بي الذاكرة إلى زهراء وأمل وصور المناظر الطبيعية لجسد حواء بإشراقه وبذخه المفرط. قطعت أيام عمرٍ مضى على صهوة خيلاء محمومة وترشفت كؤوس نساء لكل واحدة منهن طعم ومذاق ولون خاص .. كان أغلبهن من نسج الخيال لكن وجودهنّ كان معي منذ نعومة أعضائي الصغيرة .. حيّاً لا يتلاشى كما تتلاشى أحلام الناس وتصوراتهم الميتة التي تتغير مع الوقت تتعفن تتحول من أشياء إلى أشياء أخرى مختلفة. نسائي احتفظن بألوانهنّ وأبعاد الخصر والردف والقامة وشكل الأنف والشفة وأهداب الأعين وسائر التفاصيل التي تجتمع لتعطي معنى لاهثا حول القلب. بل أكثر من ذلك فلم تلتبس أو تتغير حتى أسماؤهن التي أطلقتها عليهنّ واخترعتها لأجل سهولة الاستدعاء والفرز رغم أن بعضها أصبح من مخلفات تراث باهت يشير إلى مرحلة بائدة حين لم يكن الاسم يحمل دلالة الشبق المتحضر وترف اللباقة المعاصرة. أعادني السرد الجافّ لتلك الأسماء مرة أخرى إلى ليلة خمائل .. إلى هذا الاسم الذي يحمل دلالات النمو والحياة والجمع والتواصل والمشاكسة. في لحظة مائجة تأملتُ آخر صورة

لخمائل قبل أن أسحب رأسي من أمام النافذة حيث كان نهداها يرتجان وينفران شبقا ويهطلان على صدر هاشم.. الحقيقة أنني لم امنح نهدي خمائل حقهما أبدا فقد كانا بالنسبة لي وثنين لا أؤمن كثيرا بقربهما من الشيطان وكانت عنايتي منصبة على الجزء الأسفل، ذلك الجزء الحارق بتفاصيله وتكويناته البهية النادرة. ربما لأني في يوم ما حين رأيت أول صورة لأنثى شبة عارية تذكرت أمي بمجرد أن وقعت عيناي على ذينك الكرتين الممسوكتين بيدين تحاولان جمعهما معا... أذكر انني تساءلت: أية لذة تجنيها النساء من تحريك وهصر هذه الكرات! وأجابتني زهراء ذات يوم بأنني لست امرأة ثم تبسمت وهي تمرّ يدها على مرتفعاتها المشرفة ببهاء وقد عضت على شفتها داعية إياي لتذوّقها بأدب.

عندما أعدّت خمائل وجبة الفطور كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة والنصف. كنا صامتين على المائدة ولم تطرح شيئا من أسئلتها حول عملي كما كنتُ اتوقع. بعد الفطور حاولت النوم دون جدوى رغم شعوري بعدم قدرتي على احتمال رأس مثقلة بفضائح ليلة كاملة.. بخوفها وقلقها واستحكام حلقات خسارتي التي لا أفكر في فرج قريب يعقبها.. لم يأتني يوما من الأيام فرج فكرتُ به، لم اقطف من حدائق التفاؤل شبحا لزهرة موعودة. هكذا هي خسائري، أقدار لا تقبل التعويض بأقدار أخرى. انتفضت من فراشي وقادني الفراغ إلى التشبث بمكان قريب من ذلك القبر السريّ لضحيتي الوحيدة في هذه الحياة.. الكلب الأحمر الذي دفنته في حديقة المنزل الجرداء. هناك كان مهبط شيطاني الأعظم.. ملتقى عوالم الربّ وخزائنه المخبوءة، كرنفال لم يسمع ضجيجه وصخبه غيري وحشد لا يحصى من الملائكة والشياطين التي خرّت ساجدة لآدم. رأيت شبح تلك الضحية معلقا بين السماء والأرض، يصعد بقيود من النار إلى ثقب مظلم في السماء وتردد أفواه لحشد من الحشود بشكل موقّع تكتنفه الرتابة

إنها خطيئة آدم.. لا تغفر له يا ربنا... ولكن حشدا آخر يهمس بخشوع ويرفع السؤال إلى حضرة الربّ: وماذا عن خطيئة حواء ؟ هل نسيتها يا ربّ ؟! هززت رأسي لتسقط السماء على هذا المشهد من هلوستي وافكاري الموبوءة بالسخف. خيالات مريضة لرجل غير قادر على أن يواكب صحوه ويقظته. لكن بعض الأفكار تبدأ ببذرة شيطانية كهذه، ثم تتكامل في تطورها بطريقة ما.. وبالفعل فقد سللتُ خيطا دقيقا هناك حيث الفوضى وأوهام سارحة في يباب من العجز والضياع. ما أمرّ طعم الخيانة يا خمائل .. وما أبشع أن أوقن بخسارة لا أحتملها .. خسارة لا يجبرها عالم كامل من الصبر ولا يمكن للتوهم أن ينكرها ولو للحظة واحدة.. لا يسعه أن يلبسها غير ثوبها الحقيقي ولا يفقدها لونها ولو مزجت بكلّ ألوان الطيف. خسارتي أقوى من أن تزوّرها إرادة الحياة وأقسى من أن تهوّنها الأحلام. لقد قطعوني إلى عالمين لا يمكن أن يلتقيا ولا معنى لبقائي مجزّأ هكذا... لا بد أن أكون حيث تكونين وتكونين حيث أكون وإلا فلتذهبي إلى الجحيم كما ذهبت.. أجل كما ذهبت.. كما ذهبتُ بالضبط. لم أغادر ذلك المهبط القدريّ حتى كانت ثمة فكرة واضحة تتكامل في رأسي وتتشكل تفاصيلها كلما زاد تحديقي بشبح الكلب الأحمر وخمائل..

– 12 -

لم أطلع خمائل على ما حدث لي في تلك الليلة بدءا بموضوع فتح تحقيق معي في الدائرة وانتهاءً بملف خيانتها المستمرة مع هاشم. بعد أسبوع من تلك الليلة انتهى موضوع التحقيق على خير، أعترف أن ثمة قدرا كبيرا من التعاطف أبدوه معي على غير العادة وأغدقوا عليّ جملا وعبارات وافرة من تلك التي يرددها الناس على مسامع ووجوه المتصدقين وأصحاب العاهات. لكنهم أفرطوا أيضا في جمل التحذير

والوعيد من تكرار خطأ كالذي حدث رغم أنني لم احظ بقاعدة عملية مانعة من حصول هذا الخطأ الذي لا يعرف أنه خطأ إلا بعد وقوعه. في نهاية شهر أبريل استلمت أول مرتب لي في هذا العمل الذي لم يفلح في قلب يومي راسا على عقب كما توقعت إذ قلما كنتُ أنام في نهار اليوم التالي لحراستي لانتظر كفيري مجيء الليل كي أعوض ما فاتني في الليلة السابقة التي تتمتع خلالها خمائل وهاشم بأوقات ذهبية رائعة. في يوم استلامي لمرتبي ذهبتُ إلى السوق وابتعت من إحدى المحلات طلاءً أبيض وفرشاة كبيرة لطلي الجدران وبعد يومين عدتُ إلى سوق المواد المستهلكة، كنتُ ابحث عن مكتب صغير ذي مواصفات محددة وافلحتُ بعد جهد في العثور عليه، كان رغم قدمه يشبه إلى حدٍ معقول جدا المكتب الذي يجلس خلفه المحقق الأمني في المديرية وظفرت معه بكرسيٍ يصلح لجلوس المتهمين ويمكن حشوه بشيء من الحيل اللذيذة المثيرة للضحك والبكاء. كذلك فكرت في شراء قنينة من الخمر لكنني أجلت تنفيذ هذه الفكرة ربما لترددي في الذهاب إلى مكان بيعها إذ لم يسبق أن ولجتُ ذلك الشارع المليء بروائح المشروبات الروحية وعربات المرسيدس الفخمة. لم تكن خمائل كما كانت عليه قبل عدة أشهر حين كنتُ استلم المرتب في وظيفتي السابقة فقد بدت متسامحة واقل تدقيقا في حساب المصروفات على خلاف ما كانت عليه ذات يوم. لكنها تساءلت عن أهمية شرائي لهذه المواد التي كلّفتني مبلغا زاد على نصف المرتب واكتفت بالقول أنها كانت تفكر باقتناء شرشف جديد لسريرنا مع اغطية لوسائده بدلا من الأغطية العتيقة غير أن والدتها جلبت لها قبل يومين تلك الأغراض. لم أكن غبيا لأصدق دعوى خمائل فالراجح أن هاشما هو الذي أتى بتلك الحاجات الضرورية إلى غرفتي لا سيما وإنها كانت من النوع الفاخر الذي يليق بنعومة جسديهما كما يأتي لها يوميا بالخضر والفواكه الطازجة التي أجد قشورها مجموعة في سلة

القمامة جوار المطبخ وربما ظفرت أحيانا بشيء مما يفيض عن حاجة خمائل وهي سادرة في الزعم بأنها تحصل على هبات من والدتها. خلال الأسبوع الثاني من شهر مايو قضت خمائل خمسة أيام في منزل والدتها بحجة رعايتها خلال وعكة صحية ألمت بها، كنتُ متأكدا من شيء واحد فقط هو أنها كانت بالفعل في منزل والدتها كوني أوصلتها بنفسي وعدت بعد يومين في زيارة خاطفة لتفقدها. كان ذهابها فرصة لقضاء الوقت في ترتيب غرفتي القديمة فقد قمت بإخراج كلّ ذلك الركام من التفاهات التي للمتها خمائل هناك وأمضيت أحد أيام استراحتي في طلاء الجدران وإزالة الأوساخ من أرضية الغرفة وعدت في اليوم التالي لترتيب أسلاك الكهرباء المنزوعة من أماكنها مع إجراء بعض التعديلات على مكان بعضٍ آخرَ منها. ولعل أغرب ما مرّ بي خلال ذلك الأسبوع الذي غابت خلاله زوجتي أنني شعرتُ بروح من الطمأنينة يسري في جسدي بفعل تلك الوحدة التي لم أكن أتصور أنني سأطيقها بأية حال من الأحوال وتمنيت لو أن خمائل أمضت وقتا أطول من فترة الأسبوع التي قررتها لبقائها هناك. واللافت أيضا هو أن هاشما لم يطرق الباب إلا في اليوم الذي كان من المقرر أن تعود خمائل فيه من بيت والدتها التي لا يسكن معها سوى زوجها الكهل الذي تزوجته بعد وفاة والد خمائل قبل زواجنا بأربعة أعوام تقريبا.

كانت المشاكل والمنغصات التي تقع لي في العمل تتزايد يوما بعد آخر وبدأت أشعر بأنه لا يوجد لي ثمة مستقبل وظيفي مع تلك الأكوام من الحثالات والوجوه الشيطانية التي تطلّ أمامي في كلّ لحظة من اللحظات الفاصلة بين المساء والصباح التالي شاتمة أو باصقة أو مجترحة لحركات الاستهزاء والتحقير، لم يكن سوى السيد أحمد ذلك الشاب الذي كثيرا ما يظهر لي التقدير ويحاول جاهدا إقناعي بضرورة الصبر على تصرفات المسؤولين والجلاوزة الذين يتحكمون بكلّ شيء مبشرا بأن الفرج قريب ثم يأتي على نبوءة لأحد

العرّافين أو حديث مروي في الكتب الدينية الممنوعة يقال أنه يتحدث عن زماننا وتفاصيل ما سيحدث في المستقبل على هذه الأرض لكن المخابرات تمنع هذه الكتب ويعدم كلّ من يروجها أو يحوزها بأية طريقة من الطرق كما قال السيد أحمد. كنتُ أظن أن هذه القناعة يؤمن بها المتدينون فقط لكن السيد أحمد رغم صلاته ولقبه المحترم كونه من السادة الأشراف فإنني لم أشعر بكونه متدينا. فكثر ما كان يتحدث عن الجنس والنساء ويستهزئ برجال الدين ونظرتهم حسبما يعتقد إضافة إلى كلماته ونوادره المخجلة أحيانا ورأيته في أكثر من مرة يخوض سجالا حاميا مع أبي كرار الذي كان يدافع عن علماء الدين دفاعا مستميتا ويتهم السيد أحمد بكونه منافقا يممه في ضلالة واضحة. في إحدى الليالي وقف السيد أحمد على محاولة لي في سرقة صورة الرئيس المعلقة في زاوية من زوايا غرفة الحراسة والتي كانت تطابق تماما تلك الصورة المعلقة في غرفة التحقيق في مبنى المديرية وقد كان الرئيس يقف فيها مرتديا نظارته السوداء ملوحا بيده من على شرفة لبناية مهيبة أمام حشود غفيرة من الناس ويظهر خلفه وجهان لأفراد حمايته. كانت تلك الصورة من أكثر الأشياء التي تقع عليها عيناي وأنا معلق أمامهم في وسط غرفة التحقيق أيام اعتقالي في المديرية . سألني في البداية عما أفعل قبل أن يظهر انزعاجا لا حدود له وسامت ألفاظه معي إلى الدرجة التي شابهت ألفاظهم المقرفة. وبعد أن أخبرته أنني أريدها لغرض تعليقها في منزلي قال بلهجة منفعلة وبصوت خفيض ارتفع تدريجيا:

- هل تريد أن تقطع رقابنا أيها المجنون ؟ سيتهموننا جميعا وعلى رأسهم هذا الخنزير الذي علقها ويتفقدها كل يوم بأننا قد نفذنا مؤامرة ضدّ صورة الرئيس وأنزلناها كرها له، من ذا يصدق أنك سرقتها حبا به وستعلقها جنابك في المنزل... ثم أن صوره تملأ الأسواق وتباع بسعر بخس !! ما الذي دفعك إلى فعل هذا الأمر؟!

واستمر السيد احمد تلك الليلة بالتأنيب وكيل الاتهامات ولم يقتنع انني كنتُ بالفعل ابحث عن هذه الصورة بالذات وأنني حاولت مرارا العثور عليها في الأسواق دون جدوى ولا أحمل اية نية سيئة مما خمنه. اكتفى عند نهاية الدوام وقبل أن يلوح لي بحركة اعتذار ومجاملة بسيطة عند انصرافنا بالقول إنه يشعر بالاستغراب من رغبتي في تعليقها في المنزل ومن قولي إن هذه الصورة غير موجودة بين كل تلك الأكوام من الزبالة التي تملأ أرصفة المدنية على حدّ تعبيره. أعترف بكوني لم افكر مطلقا في عواقب تلك المحاولة، ربما تصورت أن سرقة صورة الرئيس سيعتبرونها عملا يدل على الولاء ولم يدر في خلدي شيء مما قاله السيد احمد. انتابني شعور بالضيق والانزعاج بعد عودتي الى المنزل وفكرت في ترك الوظيفة بشكل أكثر جدية من السابق عندما كانت ولا زالت المشاكل والمواقف المحرجة تلاحقني اينما وضعت قدمي في تلك المنشأة الملعونة. فموقف السيد أحمد وكلامه الحادّ جعلني اشعر بأن الشعرة التي تصلني بالصبر على تصرفات الزملاء والمسؤولين الآخرين وكلامهم الذي يصل أحيانا حدّ البذاءة قد انقطعت، فهو الشخص الوحيد الذي يتعاطف معي ويدافع أغلب الوقت نيابة عني حيث لم استطع تمرين لساني على استعماله هناك وكان الصمت هو إجابتي الوحيدة لجميع الأسئلة وهو معارضتي الوحيدة لكل الآراء التي تطرح امامي. على أن ملامحه الراضية في لحظة انصرافه والتي حاول مع حركة من يده أن يعبر بها عن تسامح وتفهم لا بأس به كانت ترتسم في مخيلتي ناسجة لي خيطا من الأمل بالا يكون السيد احمد قد أراق كأس التعاطف معي على رمال تلك الحماقة التي اقترفتها دون حساب لنتائجها المحتملة. لكن الحقيقة التي أدركتها بعد أن لازمني هذا الشعور المرير الذي لا يريد أن يزايلني أن الموضوع أبعد من كوني قد خسرت تعاطف رجل في بيئة عمل كتلك التي أرزح تحت أطباقها الثقيلة. لقد كان ثمة إحساس

عنيف يهزني وأكاد أشعر أن هما ثقيلا يجثم في مساحة الروح، شيء ما يسقط خيار الهرب من العمل كحلٍّ للمشكلة وكأن السيد أحمد سيطاردني في داخل البيت ويبحث عني في زواياه وغرفه وأفنائه. علقة من نوع ما تشدني إلى هذا الرجل وتربطني بوجوده ربطا لا فكاك منه. ليس من الصعوبة أن أدرك بعد ليلة من الأرق أنني أكنّ مشاعر صداقة حقيقية تولدت تلقائيا تجاه السيد أحمد وأن ما أعانيه أمر طبيعي يعانيه المرء عندما يقع في خطأ تجاه صديق تعوّد أن يقترب منه أو تدفعه الظروف للاقتراب منه أكثر من أي شخص آخر. في الصباح التالي أقدمت خمائل على عمل أحمق حينما جاءت بربطة عنق هاشم زاعمة أنها لا تعرف متى تركها هنا وطلبت مني أن أعيدها إليه عندما يأتي، فعلت ذلك بأعصاب باردة وتظاهر واضح بعفوية لم تُوفّق إليها هي أبدا. اكتفيت بابتسامة صغيرة وسألتها بهدوء عما إذا كان هاشم قد جاء بالأمس أم لا وكانت إجابتها النافية قد اندلقت بلهجة مستغربة كدتُ لإتقانها أن أصدق أنه لم يأتِ بالفعل رغم أن أثر عجلات سيارته رأيتها صباحا عند عودتي وهي لا تزال مطبوعة في وحل الشارع من بدايته حتى باب المنزل. كانت أيام شهر آب الأخيرة اختبارا لإرادة الإنسان المعاصر فقد ارتفعت درجات الحرارة ارتفاعا لا سابق له مصحوبة بريح جنوبية مثقلة بالرطوبة والسحب الرمادية التي زادت من ضيق الجو وكآبته، وسط انقطاع شبه مستمر للتيار الكهربائي. لقد تساوت الرؤوس تلك الفترة كما رحت أردده لخمائل فلا فرق بين الفقراء والأغنياء حين ينقطع التيار وتصمت آلات التكييف الباهظة الثمن لكنها استهزأت بهذه الحكمة وردت عليّ ذات مرة بأن هاشما يمتلك خطا حرجا في بيته لا ينقطع أبدا. لم يكن بمقدور خمائل تلك الأيام أن تحتفظ بهدوئها المعتاد، كانت طيلة الأيام الأربعة التي كادت تتبخر خلالها الأجساد منفعلة وتهذرم بما شاء لها لسانها المريوء بكلمات ساخطة لاعنة لا تخلو من البذاءة.

لكم كانت تحاول أن تتخلص من حرارة الجوّ الذي ظهرت آثاره السيئة على بشرتها وكانت في اليومين الأولين لذلك لغضب الإلهي كما أسمته تمضي أوقاتا مديدة في الحمام دون جدوى لكنها عزفت عن ذلك خلال اليومين التاليين لارتفاع درجة حرارة الماء الذي أصبح بدرجة حرارة الهواء والجدران والأجساد الفائرة اللزجة. كان رأي السيد احمد بهطول الأمطار في غير موسمها والذي اعقب تلك الأيام اللاهبة انه دلالة على ما ورد في الأخبار من قرب ظهور المهدي ولكن أبا كرار خالفه الرأي ودخلا في مطاردة فقهية لم تنتهِ حتى الصباح. في تلك الليلة فوجئت برؤية هاشم بسيارته الفارهة وهو يدخل من الباب الرئيس للشركة، ظننت في بداية الأمر أنه يقصدني لسبب ما لكن سرعان ما تلاشى هذا الظنّ بعد أن اكتفى بإطلاق بوق سيارته ثم أومأ لي بيده قبل أن يمضي في طريقه نحو جهة ما في الداخل. كان السيد أحمد قد لاحظ تحية هاشم لي وسألني على الفور عما إذا كان هاشم قريبا لي أم لا، ولم يفترض أنّ من الممكن كونه صديقا ولهذا أعقب إجابتي النافية بسيل من الشتائم القاسية على هاشم ومن بين ما قاله السيد أحمد هو إن هاشما إنسان فاسد ومنحط أخلاقيا من الدرجة الأولى ويقال إنه يمضي لياليه الحمراء في بيت عاهرة كلّ ليلة. لم أقل له أنني أعرف هاشما أكثر من كلّ أقربائي المعدودين ولم أخبره أنني أعرف تلك العاهرة التي يمضي معها لياليه الحمراء تلك.

لم أشاهده وهو يخرج بسيارته وظننت أنه لم ينصرف، لا سيما بعد أن سألت السيد احمد عما يتوقعه من أسباب مجيء هاشم إلى هنا فقد أجابني بأن حفلة ماجنة بحضور بعض الفجريات تجري في مكتب المدير. لكن الأمر لا يبدو أنه قد جرى على هذا النحو الذي توقعته بناء على ما قاله السيد أحمد فمنذ عودتي إلى المنزل وقد كانت أبكر من المعتاد وجدت قشور الموز التي لم أرها منذ عدة أيام -

خصوصا في تلك الأيام الأربعة الصالية - ملقاةً في سلة القمامة أمام نافذة المطبخ وهي بالنسبة لي دليل كاف لوجود هاشم في منزلي الليلة البارحة. حين فتحت لي الباب بادرتها بالسؤال بلهجة لينة :

- أرى أن الموز قد دخل بيتنا البارحة؟

- نعم ابتعتها من الدكان في الزقاق الذي خلفنا...كانت آخر ثمرتين معلقتين في دكانه

قالت ذلك بتلقائية ودون تردد وكأنها قد أعدّت العدّة للحظة كهذه وكررت عذرها مرارا مع نفسها ثم أضافت بلهجة لبقة فيها شيء من المؤانسة:

- آسفة لأني لم أترك لك شيئا منهما

كانت أشياؤها الصغيرة مبعثرة في غرفة النوم ولمحت علبة مكياج دائرية تكسوها من الأعلى مرآة زوقت حواشيها بنوع لمّاع من القماش وإلى جانب العلبة كانت ثمة قنينة من العطر الذي كنتُ أتنشق عبيره من جسد خمائل التي عادت إلى نومها الذي وزّع أعضاءها على السرير بشكل مفعم بالإثارة والإغراء.

-13 -

يوما بعد آخر كانت خمائل تزداد فتنة وجمالا أمامي دون أن أمتلك القدرة على تذوق شيء منها. كان وزنها قد ازداد زيادة مطردة خلال شهر أيلول وبدا بوضوح أن البدانة النسبية لها تتفق تماما مع معالم جمالها وتنسجم مع باقات فتنها النادرة ولم تؤثر في أبعاد الحلاوة للغصن المكهرب لحواء فقد بقيت تلك الأبعاد ثابتة بين أجزائها. لقد تعودت هي خلال الأسابيع الماضية على وضع المكياج لوجهها بعد استيقاظها من النوم بفترة قصيرة ورشّ العطر بين نهديها وتحت الذراعين قبل أن تمرّه على الوجه والشعر. تساءلت في البداية عن مغزى ما تفعله لا سيما وأن هاشما لم يعد يأتِ وأنا موجود إلا نادرا جدا،

لكنني أدركت فيما بعد إن غرور النساء بحاجة إلى ما يثيره مرارا عدة ليصبح طبيعة راسخة ويبدو أن تكرار تبرجها لهاشم والذي لا بد أنه كان يغدق لها كلمات الإعجاب والغزل لجمالها الساحر .. للون شفتيها الحمراوين الذي يزين أحمر الشفاه .. لليل الساكن في حدقتيها الذي يمنح الكحل لون الشيطان .. للمطر الذي يرشح من أعطافها وزواياها التي تسكر فيها عطور الزهر والقرنفل .. دفعها إلى التشبث بهذا الحسن وتلك المواصفات الفريدة حتى أمام نفسها في المرآة فمن المؤكد أن خمائل لم تكن تفكر بوجود مخلوق اسمه ثائر على الإطلاق. تحامقت ذات يوم وسألتها عن سرّ هذا التبرج فكان جوابها نصلا حاقدا وقع في قلبي بلا رحمة:

- تبرجتُ أم لم أتبرج، ما الفائدة...؟! لقد فعلوها بك والسلام..

لفّني الصمت بهزيمة ساحقة كما كنتُ في زنزانتي زمن السجن وشعرت بالعار الذي لا يطيقه أيما رجل في هذا العالم. لم أهبّ في وجهها ولم أفلت من صحوي إلى تقمص وعي أحد المردة الجبارين .. خامرتني فقط فكرة الانتحار لغسل عاري الذي لا نجاة لي منه في هذه الحياة... لكنني إنسان جبان لا يقوى على ذبح نفسه كما قال الأستاذ أبو بلقيس ذات مرة وهو في لحظة من لحظات يأسه الماحقة حين طلب مني خنقه حتى الموت بعد التسليم بأنه لا يملك وسيلة للانتحار هناك. أذكر أني قلت له:

- لا يمكنني ان أتصور قيام المرء بقتل نفسه ألا إذا كان مجنونا!

وأجابني بهدوء من أتخذ قرارا واثقا من رجاحته:

- ثمة مصائب لا تحتاج إلى عقلاء ليعرفوا الحل وبعض المجانين لهم أن يقطعوا الا جدوى من الاستمرار في الحياة

- لم أقصد هذه الناحية في حساب الربح والخسارة، ما أعنيه أن فعل المجنون يأتي عفويا لا وجود لما يسبقه.. أعني – وبحثت طويلا

في ذاكرتي عما يلبي هذا الطلب العاجل للفظة ما، لها أن توضح القصد الذي تصورته بجلاء تام في ذهني تلك اللحظات – وأخيرا أكملت له القول: أعني أنه فعل مجنون.

على أن أبا بلقيس عاد مرة وقال لي: هل تدري إن الله يختار الجبناء لمصائب الدنيا ؟ قل لماذا ؟ وقلت له لماذا يا أستاذ؟ فأجاب وهو متكئ في ظلمة الزنزانة: لأنهم جبناء لن يقدموا على وضع نهاية لمصائبهم بأن ينتحروا.. والحياة لا بد أن تستمر بمصائبها .. هل تدري لماذا؟ قل لماذا؟ وقلتها له فردّ: لأن هناك نفر لابد أن ينعم هنا، ألم تسمع قول الشاعر مصائب قوم عند قوم فوائدُ..

في النهاية انتحر أبو بلقيس بطريقة قاسية حين سبّ الرئيس في حضرتهم بجملة طويلة تمكن من إكمالها قبل أن يلفظ أنفاسه على اثر ضربة وجّهها أحد المردة إلى رأسه فخرج جزء من دماغه وسط ارتياح عام من المسؤولين. كنتُ أرى ما قام به أبو بلقيس أمرا ينمّ بشجاعة فائقة يقوم بها الرجال وكأني لم أكن اعترف بكوني رجلا مثله رغم أنني في تلك الفترة ما زلت أحتفظ بذلك الجزء الذي قطعوه مني إذ تمّ ذلك بعد الحادثة بيومين إلا أن الشيخ راضي كان يعبّر أمامي عن استيائه المتواصل لما اقدم عليه الأستاذ ورأى فيه يأسا كافرا من رحمة الله. لا أدري .. هل باستطاعة خمائل أن تمل معي ما طلبه الأستاذ.. هل اطلب منها مساعدتي على الانتحار؟؟ لا أعتقد انها ستمانع طويلا لو أصررت على هذا الطلب ولكن لماذا استجدي منها الموت! لماذا لا أرفع رأسي بمشنقة عوضا عن أن أدسه في التراب تحت اقدام انثى خائنة عاهرة كخمائل ! لقد سيطرت فكرة الانتحار هذه على تفكيري عدّة أيام جالت خلالها في مخيلتي افكار وصور وأوهام وغيوب لا تحصى. في الليلة التالية رحتُ اتصور نفسي وقد متّ بشكل مفاجئ وإذ أرى من حولي نساء عاريات ورجال لا يسترهم شيء، لم أر ملك الموت ولا أي ملاك آخر. اقتربت إحدى النساء مني ونظرتُ انا

بشكل لا إرادي إلى جزئي الأسفل، هو هو لم يتغير شيء منه فما زالت تلك الدائرة مستوية السطح تقريبا لم ينبت ثمة شيء فيها. لاصقتني المرأة ودلكت جانبا من جلدها بي ثم دفعتني بقوة إلى الخلف وهي تصرخ "لماذا جئت إذن أيها الخائب؟!". لم أجد بعد ذلك ما أفكر به فقمت باستئناف المشهد ثانية .. أموت بشكل مفاجئ وأخرج من جسدي لأرى من حولي نساءً ورجالا دون ثياب ..عراة كما خلقهم الله.. تقترب ذات المرأة مني وانظر بشكل لا إرادي إلى جزئي الأسفل، لقد كان سويا تماما.. من هنا سأبدأ رحلة لذيذة مع خمائل الأخرى خمائل الباقية التي لا تزول. خضت في ذلك الوهم الآخر بقدرة لا مثيل لها على الإطلاق. وامسست بين أجزاء ذلك العالم ونسقت علاقاته بطريقة محكمة، استطعت أن أجد لكل حدث من تلك الأحداث غير الطبيعية سببا مقنعا وقد أطلعتني بعض الوجوه التي أعرفها هناك على أسرار خمائل الباحة دون منع بأقصى طاقاتها متى شاء المرء.

تحول ذلك الحلم إلى ما يشبه العادة السرية في ذهني والطريف أن القصة بدأت بمحاولة عرضية لاستباق انتحاري المرجوّ والتهوين من قسوة الموت وبشاعة وجهه المظلم بتوهم رؤيته والاستقرار في حقيقته، وأخذت أقبع في الفراش وقتا أطول كثيرا من المعتاد لأدأب في رسم وتلوين نسائي هناك، اختار لهنّ مقاساتي الأثيرة وانتقي المواصفات بتنوع وثراء لا حدّ له كي التذّ بجنة شبقي وإدماني على حواء.

سئمت هذه المشاهد المخلوقة على طريقتي وعدتُ في النهاية إلى التفكير فيما بدأت لأجله، الحقيقة أنني لم انتهِ إلى شيء يذكر لم أفلح في تقريب صورة الموت والتقليل من رهبته. لقد بقي بالنسبة لي شيئا مفزعا ومهولا لا قبل لي بتخيله رغم أن جزءا كبيرا من ذلك الفزع والخوف .. من معنى الموت كما هو راسخ في ذهني إنما كان بتأثير أقوال وحكايات وقصص... أسماء ومناظر وروايات ونصوص إلهية... عالم خلقته أفواه وأياد وعيون، جدي وجدتي وأبي.. أمي التي

تحلم كثيرا بالموتى منذ كنت طفلا. عالم خلقوه لي وأقحموه في خلايا رأسي كحقيقة مطلقة ثابتة، رسموا لي الكثير من تفاصيله وأقنعوني بأنه مبهم.. مبهم لا يعلمون عن تفاصيله ما يستحق الذكر، وقد قمتُ في فترة بقراءة القرآن الكريم والبحث فيه عن ذلك العالم فلم أجد شيئا مما ذكروه سوى ملك الموت وجنوده الموكلين بإطاعته والبرزخ الذي ينتظر العابد، وهنا يثبت الفرق بين ما تخلقه الرغبة وما يخلق بلا رغبة على أيدي الآخرين. بل أدركتُ حقيقة أن الناس تميل إلى التركيب والتعقيد لكل حقيقة سهلة وبسيطة متناهية في بساطتها، الله تعالى نفسه تلك الحقيقة البسيطة والجميلة لبساطتها بحثوا عنه فردا صمدا فركّبوه وعقّدوه دون أن يشعروا .. مع أنهم يؤمنون بأنه فرد لا تركيب فيه وهو واضح لا يحتاج إلى مزيد من الوضوح لكنهم جعلوه أغمض ما في عالم الوجود.

في يوم خريفي موحش وعقب موقف محرج حدث لي في الدائرة عدتُ إلى المنزل مشبعا بيأس خانق فكرت جديا بالانتحار كحلٍّ أمثل وقطعت بوجوب التشجع والعزم على وضع نهاية لمهزلتي في هذه الحياة. لكن شيطاني أبى إلا الاستمرار في تنفيذ مشروع انتقامي الذي أعددت له العدة على مهل منذ وقت. لا بدّ من الثأر لجرح الكرامة الغائر في أعماقي كي يطيب لي الرحيل بعد ذلك دون أسف وحسرة.

-14-

تتقاطع الشهور وتتداخل الأيام.. أسير إلى جنب خمائل غريبا عنها أحيانا كثيرة، اذهب وأعود من العمل إلى المنزل وفي الطريق تتراكم افكار وتتضح مشاهد قادمة وتستقر حلول لا بد من تجرّعها.. الحق أنني كنت أعيد مرارا ترتيب الملامح لمشهد الحل الذي أنتظر. ذات يوم وجدت هاشما في منزلي شبه عارٍ فيما كانت خمائل تستحمّ مترنمة بمقاطع أغنية تافهة. اكتفيت بإلقاء السلام عليه وذهبت إلى السرير

واستلقيت هناك على ما فيه من روائح متباينة في كل طرف منه. لم أنم.. ظللت أتقلّب حتى سقطتُ إلى مكان آخر وخضت معركة حامية مع أحد المردة، كان شبه عارٍ وأوسعته ضربا مبرّحا حتى لاذ بالفرار وخمائل تركض خلفه كالمجنونة.. استمرّ الحال بي إلى أشهر، أنا في مكان وزوجتي في أحضان صديقي بين ليلة وأخرى. `ذات يوم من أيام شهر كانون الثاني استلمت مبلغا كبيرا من المال، كان عبارة عن حوافز وأرباح وزعتها الشركة على منتسبيها. لم أعد بذلك المال إلى خمائل بل ذهبت مباشرة إلى السوق واقتنيت بعض الأغراض والحاجات كانت عبارة عن حبال متينة ومصطبة جلوس وتحفيات ليست باهضة الثمن على أية حال.. وعدت في اليوم التالي لأشتري طلبات خمائل وهي معي.. كانت تجيد المساومة ولأول مرة أعرف أن زوجتي ماهرة إلى حد بعيد في إقناع البائع بالتخلي ولو عن نصف سعر بضاعته. ففي متجر لبيع الألبسة النسائية وأدوات الزينة تعلقت خمائل بفستان جميل كان مكلفا للغاية ولكنها بعد ولوجها إلى زاوية في المتجر مع صاحبه دخلت معه في مساومة.. أخبرتني أنه رجل غير جشع وتنازل عن نصف سعر الفستان الذي ارتدته في الداخل لضبط مقاساته. لقد كانت بالفعل بارعة تماما وإن استغرقت حوالي ربع ساعة لإسقاط نصف الثمن في تلك الزاوية المظلمة من المتجر. إذن لقد كان فردا نبيلا تخلى عن نصف السعر لأجل خمائل...

أرادت خمائل مني أن نذهب إلى أحد المطاعم، نعيد أنس أيام سابقة.. لا معنى للمال بلا لذة لإنفاقه. كانت شوارع المدينة مكفهرة، الناس تسير كأشباح مخمورة والسماء ملبدة بغيوم ثقيلة لكنها تسير بسرعة لتترك بين الحين والآخر فسحات زرقاء يتخلل منها لون الشمس التي توشك على الغروب. كان المطعم الذي قصدناه يقابل كورنيش النهر وتغط الأشياء الساكنة والمتحركة هناك بما يشبه هالات إغراء ناعمة.. كانت امرأة تجلس إلى إحدى الموائد الخارجية وهي تدخن

سيجارتها. منظر غير مألوف في مدينة تركت عهرها منذ سنين، وجفت فيها حركات طائشة من هذا النوع. مجموعة من الشبان كانوا ينظرون إلى الأجساد المعبأة بملاءات سود، خمائل خرقت المشهد إلى النصف حيث كانت ترتدي تنورة طويلة وحجابا لم يغط كامل شعرها الأشقر.. ليست خمائل من بحاجة إلى تبرج إضافي، إنها امرأة خلقها الله من تبرّج الحوريات.. لم أشعر بغضاضة لرؤية تلك العيون الجشعة وهي تتأمل في كل زوايا زوجتي. البعض أطلق كلمات ناعمة ورقيقة حسبها ستكون كافية لإقناعي أنه بصدد معاكسة خمائل التي بادلت الجميع ابتسامة خفيفة ورقيقة قبل أن ندخل إلى المطعم ونختار مكانا ملائما للانفراد معا. أثناء تناولنا للطعام همست في أذني قائلة: إن هذا المكان هو المكان المفضل لصديقك هاشم..

تذكرت في تلك اللحظة أنني بحاجة لشراء مكنسة طويلة ذات يد خشبية قوية وبعض الضمادات والمستلزمات الطبية لإسعاف الجروح وما شاكل. تركت خمائل تكمل وجبتها هناك وذهبت إلى إحدى الدكاكين القريبة لشراء حاجتي.. في طريق عودتنا كنت أستعيد وجوه أولئك الشباب الذين أسمعوني وإياها كلماتهم تلك.. هل من الممكن أن ألتقي بهم ثانية؟ سؤال غاية في الأهمية لأن رحلتي مع خمائل لم تكتمل بعد.. سأحتاج لتفسير الكثير مما كان في أيام حياتي حين أصل إلى آخر محطات رحلتنا.. عدد هائل من الوجوه بحاجة إلى أن ألتقيها ثانية.. ولكن: كيف؟!

لم يكن صاحب سيارة التكسي التي أقلتنا سوى رجل منهك، ملامحه متآكلة وكلماته يلقيها دون معانٍ مؤكدة.. عاث فسادا بلحظات خمائل التي كانت رائقة حين راح يسألني عما إذا كان لي أطفال أم لا؟ واكتفيت بإجابة ساذجة حين ادعيت سيكون لنا أطفال في المستقبل إن شاء الله.. المستقبل الذي جعل خمائل تلوذ عني للنظر من خلال النافذة الزجاجية للسيارة دون أن تنبس بشيء. لكنها ويمد

ترجلنا لخطوات قالت إن هاشما يعتقد أن بوسع العلم أن يتطور ليصل يوما لزرع الأعضاء ومنها هذا الذي قطعوه منك .. وعادت بعد لحظة لتتساءل: هل حقا يمكن ذلك يوما ما؟

اجبتها بثقة عالية أن هذا مجرد حلم حتى ولو تحقق..

ليلة شراء خمائل لفستانها كانت ليلة رائعة. فعند عودتنا إلى البيت خلعت ملابسها مباشرة وطفقت إلى المرآة في غرفة النوم ارتدت الفستان ووضعت جميع المساحيق التي اقتنتها. بدت عروسا رائعة، فتنتُها لم تكن تقف عند حد.. شعرت للحظة انني أمر بحالة قريبة من الاستمناء وأنا أتأمل في مشاهدها الباذخة الجمال .. لم افقه شيئا مما حدث لكنني طلبت إليها أن نقوم بلعبة طفولية أن نعيد تمثيل مشهد زفافنا.. والمفاجأة أن وافقت بسهولة بل وبشوق ومرح لافتين. لم أرتكب حماقة تذكر تلك الليلة، فلم يساورني حتى القلق من مارد طائش في تلك اللحظات التي تقلبت أنا وهي معا على الفراش. في ضحى اليوم التالي لم يوقظنا سوى سقوط صاروخ على المحلة وتدميره لأربعة بيوت دفعة واحدة. كان من الواجب أن أذهب إلى مكان الحادثة، على الأقل ثمة صديقة لخمائل يقع منزلها قريبا من مكان سقوط الصاروخ. كان الناس متجمعين في مفترق الطريق المؤدية إلى المكان يحدقون بمشهد الدمار الهائل. الجميع يلقون بأسئلتهم وأجوبتها في آن واحد... في زاوية من مكان تواجد الجمع البشري كان يحتشد مجموعة من أعضاء الفرقة الحزبية ينتظرون الأوامر لفعل شيء ما. سيارات الإسعاف لم تصل بعد، شيء معتاد أن تصل بعد أن يلفظ المزيد أنفاسهم الأخيرة تحت الركام. تذكرت أجواء الحرب الأولى في الثمانيات حيث كنتُ في مدينة البصرة وكانت الصواريخ الإيرانية تنهال على دور الأبرياء طبقا لسياق ما عرف بحرب المدن آنذاك، لتهدّم البيوت وتقتل الناس الذين لا علاقة لهم بما كان يحدث. تداعى إلى ذاكرتي مشهد مرعب رافقني إرعابه لسنوات،

قنيفة مدفعية سقطت على منزل أحدهم المكوّن من طابقين. كان الرجل متزوجا من امرأتين وله خمسة عشر ولدا يسكن ثلاث منهم في الطابق العلوي مع زوجاتهم. في لحظة سقوط القنيفة كان الرجل البائس خارج المنزل يشتري القشطة من إحدى البائعات اللواتي يأتين محمّلات بغنج الريف. كان قد اعتاد أن يمضي وقتا في مغازلتها بل ويقال أنه كان يداعبها امام المارة بيديه اللتين تجاوزتا حدود بعض طيات ثيابها. في لحظة كانت من أمتع لحظاته حيث دبّت يده لتلامس شيطانتيها الزلقتين اهتز المكان، لم يكن من تلك البائعة الغجرية إلا ان قالت له وهي تبتسم: لقد وقع الصاروخ على بيتك حجي.. وقهقه الرجل رادا بلهجة مغالطة: أتريدين صاروخا .. ما زلت امتلك القدرة على ذلك .. لقد كان وقع الوعي على عقله الحالم غاية في الضراوة .. حين عاد مشدوها لا يعرف ما يفعل وهو يتأمل منزله الذي أحيل إلى ركام. كنتُ بالقرب منه أنا ومجموعة من الشباب في الحي .. وحين بدأت عمليات البحث عن جثث عائلته بقي حجي عباس كما أتذكر اسمه جيدا يبحث عن يد إحدى بناته، ساهمت بدوري في حمل بعض الجثث، كانت المرة الأولى التي أقوم فيها بمثل هذا العمل المقرف وقد رافقتني صور الوجوه الممزقة والأشلاء المتناثرة لمدة طويلة..

أبى الرجل أن يوقن في نهاية البحث لفرقة الدفاع المدني أن يد ابنته غير موجودة.. استمر حجي عباس بالبحث بين ما تبقى من حطام بيته عن يد ابنته. استمر لأشهر عدة وهو يبحث عن ذلك الجزء من جسد ابنته. لم يكن واضحا أنه يعاني من اختلال في عقله على أثر تلك الصدمة المروعة، ولكن صعب على الكثير تفسير إصراره على إيجاد ذلك الجزء الجسدي لجثة دفنت بعد يومين من وقوع الحادثة. سألته ذات مرة عن معنى ما يقوم به فأجابني إن شيماء ابنته لن ترتاح في قبرها ما لم تعاد لها يدها وتدفن معها وظننتُ حينئذ أنها ربما تكون إحدى القناعات التي تكثر في المدنية ويتشبث بها كبار السن رغم

أنها من مخلفات عصور خالية. ربما اقتربتُ أيضا من أن أقطع بجنون الرجل لولا أنه قال لي مرة في لقاء عابر حين وجدتهُ جالسا على حافة الرصيف المقابل لبيته الذي أصبح أثرا بعد عين: إن الموت قدر ليس لنا أن ندفعه، الله يقدّر وعلينا أن نعرف أن الله يقدّر فعلا وانتهى الأمر.
عدتُ إلى البصرة بعد تلك الحادثة بسنة واحدة لأبقى ضيفا لدى أحد أقربائي لمدة أسبوع أو أكثر وأعلمني ذلك القريب أن سر حجي عباس تمّ كشفه فقد كان يبحث عن سوار ثمين جدا تحمله يد شيماء ألبسها إياه في المساء الذي سبق ذلك الصباح الدموي.. وأوضح لي أنه عثر عليه بعد أن استأجر عاملين لرفع ما تبقى من أنقاض وقام على الفور ببيعه وخطبة بائعة القشطة تلك وتزوجها فعلا قبل ثلاثة أشهر.
كانت خمائل قد بدأت تفكر بتجهيز الطعام الذي آخذه عند انصرافي إلى العمل حين عدتُ لإخبارها أن صديقتها وأهلها بخير وأن الصاروخ وقع على رؤوس معينة رحت أسردها لها .. كان عدد الضحايا قد بلغ الخمس والثلاثين ضحية حسب ما سمعته هناك من أحد الذين أعرفهم من أعضاء الفرقة الحزبية الذين كلّفوا أنفسهم بواجب إحصاء عدد الجثث التي ينتشلها رجال الدفاع المدني.
لا أبالغ إذا قلتُ إنني لم أشعر بروتين العمل الذي يكرر نفسه بين ليلة وأخرى، طيلة كل تلك الأشهر لا سيما الأخيرة من عام 2002 حيث كنتُ كمن يجدّ بصبر واجتهاد لتحقيق هدف ما .. هدف ما.. الهدف الذي يجب تحقيقه في وقتٍ ما..
أجل.. لم تكن المنغصات في الشركة لتنتهي ولكنها أصبحت لي شيئا معتادا ومن السذاجة أن أبقى أشتكي منها لهاشم الذي قال لي حين أخبرته يوما أن أحد المسؤولين لمّح لكوني ذا سوابق ولا بد من فتح ملفي:
- لا تهتم دعهم يقولوا ويفعلوا ما يشاءون، كل ما يسعون إليه سينقطع عند السيد المدير ويذهب أدراج الأدراج التي لن تفتح ثانية..

- ولكن كيف احتمل ذلك؟

- بالتغليس.. تجاهل كل ما حولك، اذهب وعد ولا عليك ستستلم مرتبك نهاية الشهر.

- أجل.. أجل، وعلى ذكر المرتب وعدوني بعلاوة جديدة

- خذ علاوات لا سيما خلال الأشهر القليلة القادمة

- ولماذا؟

- الدولة تريد ذلك.

ما قاله هاشم حدث بالفعل حتى جاء شهر آذار وعندها انفجرت الأحداث انفجارا مدويا لم يتوقعه إلا القليلون. كان هاشم خلال تلك الأيام الأولى من شهر آذار مضطربا غاية الاضطراب ومع ذلك احتفظ برباطة الجأش وروح التفاؤل أمام خمائل. كان يكرر لها إننا سنهزم أمريكا ، هم يعلمون ذلك ولهذا لن يجرؤا على اشعال الحرب ستكون وبالا عليهم ويفقدون هيبتهم كأعظم دولة في العالم.

في يوم بلا لون.. كانت أشعة الشمس هادئة وديعة تحجبها غيوم رمادية بين الفينة والأخرى، مشهد السماء كان يشبه مسرحا يتم إعداده بهدوء لعمل جبار.. عمل سيهزّ جمهور الأرض. سألتني خمائل عن معنى هذا التحليق الجنوني للطائرات المقاتلة الأمريكية طوال الليل والنهار، لماذا يصرون على التحليق المنخفض أين المضادات الأرضية والصواريخ التي ملأت المدينة وأطرافها قبل يومين؟؟ أجبتها بعد تفكير عميق واستعادة متقنة لأحاديث هاشم الأخيرة:

- حرب جديدة ستحدث.. ربما قضينا نحبنا هذه المرة يا خمائل..

استبد الذعر بزوجتي وأصرت على وجوب مغادرة الحي الذي سيقع ضحية معركة شرسة قادمة لما يجتمع حوله من منشآت مدنية وعسكرية وخاصة بعد أن شوهدت قطعات عسكرية عراقية تتجمع في الساحات التي كان صبية الحي وشبابه قد اقتسموها فيما بينهم كملاعب لكرة القدم. أصرت خمائل على أن نهرب إلى أحد

أصدقائي في الريف أو واحد من أولئك الأقرباء المنسيين في مناطق نائيه عن المدينة.. كان خيارا صعبا ، سأبدو مضحكا وتافها.. كيف أقطع عملي وأذهب بزوجتي لمجرد توقع حدوث حرب وتوقع أنها ستكون شرسة وتوقع أنها ستُسقط الحكومة..! توقع شيء نصف ذكاء وتوقع أشياء عدة غباء مطلق. وقررت أن أكون نصف غبي ، فأصطحبت خمائل إلى قريب تربطني به علاقة صداقة أو ربما كان صديقا تربطني به علاقة قربى، لا أدري، المهم أنه كان رجلا دمث الخلق مؤدبا جدا وملتزما دينيا يقال أنه يصلي صلاة الليل ويعتكف في مسجد القرية يوما كل شهر. أفرد لها الرجل الذي تبيّن لي أنه يصلني برحم وشيجة غرفة مناسبة ، وفّر فيها لخمائل بعض الأشياء لإعارتها خصوصية أنثوية. وعلى مائدة عامرة بما لذ وطاب ألح علي بضرورة البقاء فالحرب قادمة لا محال وكل شيء ثابت سيتغير كما لم يحدث من قبل.. وأطلق العنان لتخمينياته العددية فقد توقع أن يقضي في هذه الحرب بضعة ملايين. في المساء أقلعت عن فكرة العودة في نفس اليوم وآثرت البقاء حتى صباح اليوم التالي. كانت الطبيعة الساحرة ونسمات الهواء الندية التي تعبر النهر الذي تغفو القرية على جانبه الشرقي شيئا لم آلفه من زمن طويل. تنزّهت بصحبة قريبي في بستانه حتى سمعنا أذان المغرب ينطلق من المسجد. دعاني للذهاب معه كي نصلي المغرب والعشاء ولم أجد الجرأة على مصارحته بكوني لست من المصلين.

في المسجد عرّفني إلى عدة أشخاص واحد منهم كان شابا مرحا ، قال قريبي إنه يصلي يوما ويترك يوما. اظهرت شيئا من النفاق حين وصفته كونه لا يصح ان يكون مسلما.. يا الله ليس مسلما ابدا فالصلاة هوية اليس كذلك؟ ابتسم قريبي وردّ أنه خير عندي ممن لا يصلون أبدا.. ثم أردف:

- الصلاة وسيلة يا أخ ثائر لمقصد واضح، أن تكون شخصا ذا أخلاق حسنة يكفي لتكون مسلما بل وملتزما أيضا. كما أنه ليس كل من يصلي شخص حسن الأخلاق، بل أجزم أن وصفه بالمسلم بحاجة إلى تأنٍ.

كنت في تلك الليلة قد قررت تأدية صلاة الصبح ولكن في الصباح عدلتُ عن هذه الفكرة اللاغية، إنها فكرة لا تناسب ثائر مجدول على أية حال.. لم أجد أنني بحاجة إلى أخلاق حسنة جديدة على الأقل حتى ذلك الوقت أما القادم فيجب ألا ينفرط بين خيارات متباينة، هناك شيء لا بد من أن أجعل الأمور تسير نحوه بدقة أعلى مما هي عليه الآن.

في طريق عودتي إلى المدينة تعطلت السيارة في مكان منقطع. كنا خمسة أشخاص امرأتين ورجلين وأنا إضافة إلى السائق. كانت إحدى الامرأتين تشبه زوجتي خمائل لهذا فضلت الجلوس قريبا منها. تبادلنا أحاديث عديدة حين اضطررنا للجلوس على صخرة معتدلة في جانب الطريق إلى أن يكمل سائقنا إصلاح العطل الذي أصاب سيارته. قالت لي إنها متوترة.. جازعة، ثم سألتني:

- هل تعرف يا أخ أنني أرغب في وضع نهاية لحياتي البائسة

ضحكت بكل بلاهة، بدوت كأني طفل ساذج لا يليق به معادثة الكبار.. كانت ضحكتي حماقة كبرى ولا شك، لاذت المرأة بالصمت، وبعد ذلك الصمت الذي خيّم على المكان انفجرت باكية. شعرتُ عندها أنني أسخف رجل صادفته هذه المرأة. حاولت إصلاح الأمر ولكنها أصلحته قبلي. قصت حكاية مألوفة، سمعتها مرارا.. لكنها حكاية بالنسبة لصاحبها واحدة من أغرب حكايات المصائب البشرية. فتاة ترفض الزواج من شخص اختاره لها أخوها الأكبر فيما هي عاشقة متيمة بفارس أحلام كثيرا ما يسقط من جواده. لا أدري كيف انقلبت إلى فيلسوف ورحت أحلّل القضية من جوانب فيزيقية

عدة وأتنقل بين مستويات متنوعة للبحث والتشريح، لم تظهر الآنسة ردة فعل محتقرة لي بل بدت تتفهم الكثير مما أقوله وإن كانت ترى فيه تأييدا لقناعتها.. سخافة الأفكار أن تكون مزدوجة إلى هذا الحد. هل أصدق نفسي؟ شيء مما حدث له ان يكون قصة أكثر غرابة بالنسبة لي حيث عدت إلى منزلي ومعي الآنسة رجاء.

كانت الآنسة قد بدأت حكايتها من نهايتها ، إنها تبحث عن مكان آمن للهرب. وجهتها الوحيدة هي الوصول إلى العاصمة ، هناك ستكون قريبة من صديقها الذي يخدم في وحدة عسكرية في أطراف العاصمة. لديها وسيلة واحدة للأتصال به هاتف صديقه الذي تعرف عنه أنه أبو محمد ويقطن في حي شعبي من أحياء بغداد.

- أمر يصعب عليك يا آنسة..
- لا خيار آخر لديّ.. سابحث عنه ونتزوج
- قد لا يكون هذا الخيار الأفضل..
- بلى هو الخيار الوحيد ، ليفعلوا بعد ذلك ما يريدونه بي.
- ربما لن يوافق الرجل على اقتراح من هذا النوع، أن تتزوجوا بهذه الطريقة يعني أنكما بصدد جريمة تعرفين عواقبها.
- وما الحل؟ أتراك تطلب مني العودة؟
- لا أدري.. ما رأيك في مرافقتي إلى بيتي، لا بد من فسحة للتفكير والتأني.

بعد لحظة واحدة استغربتُ كيف أطلب من امرأة لا أعرفها أن ترافقني وكيف يمكن لها أن ترافق رجلا لا تعرفه..! كان سائق السيارة قد ادعى أنه لم يقف على حقيقة عطل سيارته وسرد لنا تكهناته الميكانيكية. أدركنا الا معنى لتواجدنا في ذلك العراء البهيم، الصحراء التي أعطيناها أظهرنا كانت رحبا موحشا لا نكاد نطيق النظر إليه.. هكذا هي بدايات الحروب تحيل الأماكن إلى مفازات من الحذر الرهيب.. لم أتلق إجابة من الآنسة رجاء على طلب

مرافقتها لي. استأجرنا سيارة صعدت إلى الطريق من جادة فرعية وكانت رجاء صامتة، لم تتبس بشيء حتى وصلنا إلى مركز المدينة، بعد سيرنا بضعة خطوات سألتني عن محل سكناي، وبدت أنها راغبة في الذهاب معي.

- زوجتي تركتها خلفي، إنها خائفة من المعركة القادمة التي ستدور بين بيوتنا هذه المرة..

- لديك أطفال سيد ثائر؟

- كلا.. ليس لدي أطفال، أنا عاقر

أشرق وجهها بابتسامة رائعة تشبه ابتسامة خمائل بكل حيويتها وإشراقها. الواقع إنني بدأت منذ دخولي إلى المنزل بالارتباك، شعرتُ بشيء من الخجل لتواضع كل ما في بيتي.. غرفة الاستقبال كانت تحتوي على بساطين عتيقين وآخرين طويا لجدّتهما وبضعة مقاعد اسفنجية، أما ستارة الشباك الصدئ فكانت ممزقة من طرفها السفلي وكانت تشبه ثوبا باليا سرحت ومرحت فوقه القوارض فرسمت له شكلا زخرفيا بشكل عشوائي.. في الآونة الأخيرة كانت حوافز وأرباح الشركة قد وفرت لي فرصة تحسين حال هذه الغرفة إلا أنني وخمائل لم نظهر سوى رغبة مؤجلة بتحسين بعض الملامح الرئيسة لغرفة الاستقبال بل قذفت خمائل موعد شراء البساطين بعيدا بحجة عدم وجود من يزورنا لكنني أصررت بشكل مفاجئ فيما بعد على شرائهما لسبب لا أعرفه تماما ربما لأنني كنت أرى مجيء هاشم محرجا والرجل لا ينفك عن التوبيخ والتندر لمرآى غرفة الاستقبال في بيتي.

خلعت رجاء ملاءتها السوداء وطفقت تنظف غرف البيت وأظهرت همة عالية في تقمص دور زوجة تمر بمرحلة اختبار لمهاراتها البيتية .. ربما كانت تحاول أن تعبر لنفسها عن مثل هذه القدرة، رغبات النساء تعبر عن نفسها بطرق مختلفة تتسم بالغرابة أحيانا كثيرة. لقد كانت

رجاء بصدد ردة فعل على واقع مأزوم قبالة تصورات حالمة وأماني كبيرة. لم تظهر الأنسة رجاء تخوّفها من دخول بيت رجل غريب تعرفت إليه تحت وقع حالة نفسية خانقة.. لا أدري ما الذي كنتُ أفعله وهي تهيم أمامي في البيت كفراشة نادرة شهية الألوان ! أعدت وجبة الطعام بنفسها وكان طهيها مبتكرا جدا.. الشيء الوحيد الذي أعرفه عن نفسي هو غياب تفكيري بكوني رجلا.. لم أحضر أمامها بنظراتي المتوحشة وحركاتي البربرية التي كانت تؤدي في بلاط خمائل..

الساعة الواحدة ليلا، ورجاء تتقلب على فراشها الذي كان في غرفة الاستقبال قبل أن نتبادل الأماكن فتنام هي في غرفة النوم وأنا في غرفة الاستقبال. كان بوسعي سماع تنهّداتها المستمرة. عزمت على تنبيهها مرارا لنجلس ونتحدث بدلا من هذا الأرق الممل، لكنني ترددت خشية تفسيرها لذلك بشيء آخر ينطوي على نوايا منحرفة. صعدتُ إلى السطح، النجوم تتلألأ كما لم أرها من قبل. وفي الأفق الغربي للمدينة كانت ومضات زرقاء خافتة تظهر وتختفي بين حين وآخر دون سماع انفجارات أو اهتزازت واضحة. صوت لهدير الطائرات لا يكاد يسمع إلا بتأمل رجل مفزوع مثلي .. هدوء معقول ويحمل ما يكرر عظاته للنفوس والارواح. اتكأت على سياج السطح ورحتُ أدخن سيجارتي التي عادت لي بعد فراق غير قصير. ماذا لو اشتعلت الحرب ثانية؟ سؤال يفعل فعل القهوة.. ينبّه الصحو ويزيح ثقل الأرق معا. تذكرت كلام الاستاذ أبي بلقيس رحمه الله حيث قال ذات يوم وهو يتحدث عن ذكرياته في معارك الشلامجة إن الحرب تسمى حربا حين لا تأتي بنتيجة تذكر. لم أفهم كثيرا مغزى كلمته تلك ولكن معنى أن يكون للحرب نتيجة هو معنى أن نبقى أحياء لنحكم، ربما.. حامت إحدى الطائرات على ارتفاع منخفض بشكل مفاجئ. سارعت

بالنزول عبر السلّم وقد تعثرت مرتين ثم وجدت نفسي أخيرا أقف إزاء المرأة المفزوعة.

- هل بدأت؟
- لا أدري.. ولكن هذا التحليق يبدو غريبا نوعا ما.
- لقد بدأت الحرب خوية... اشلون بينه
- الله كريم.

لم تمر سوى بضعة دقائق حتى اشتعل كل شيء، اختلط هدير طائرات بلا عدد.. مع أصوات انفجارات مدوية ومرعبة، كانت عمليات القصف عنيفة وعلى مواقع قريبة جدا. لا شك اننا سنذوق أعنف مراحل الدمار كون المدينة تقع على طريق الزحف العسكري الأمريكي. وبالتالي فمن الضروري تصفية كل شيء يرونه ممكن التصفية والتدمير. كنت هلعا مثيرا للشفقة وأما رجاء فهي الأخرى بدت على وشك أن تقع مغشيا عليها. لم نتمكن من النطق بسوى مقاطع مرتبكة تدعو الله أن يجنبنا صاروخا موجها بالليزر يدكنا دكا. في فترة ما تخللها هدوء نسبي فترت خلاله عمليات القصف سوى الهدير المستمر للطائرات الحربية وانفلاق القذائق المضادة للدفاعات الجوية حاولت أن استجمع شجاعتي واهدّئ من روع الآنسة رجاء، لقد كانت الفتاة مقرفصة بجانب الجدار. تعلو وجهها صفرة غريبة وقد جمعت يديها بشكل مثير للغاية، في تلك اللحظة تحرك مارد صغير في داخلي، جلستها أعادت صياغة مشهد خمائليّ صرف. من خلال نظرة خاطفة كان ثمة بياض لصدرها ينقّع بعض هوامش الوقت ويعيد محاولا ضبط بوصلة ميتة. خصلات من شعرها الداكن لترسم محورا لافتا لحدث سابق الامتلاء والإدهاش .. لم يسهم تحريكها لرجليها المثنيتين في تشويش مقطع أغنية جسدية غنية لكنه نبهني إلى بعض التباينات الحادة في مواقع مكتنزة بالإغراء مع ملامح خمائل الرطبة. اقتربت خطوة واحدة، الخطوة الواحدة تكفي لإثارة بعض الأشياء في

ظروف كهذه، لكن رجاء لم تحرك ساكنا، بقيت محتشدة على خوفها وكأنها تخشى تلاشيها في فراغ مفزع تشمر بوطأة جذبه العاتية من كل جهاتها. انطفأ التيار الكهربائي واختلطت الأمور اختلاطا برزخيا هادرا.. لم يكن السكون بالشيء الأكثر قسوة في المكان، بل إن صوتا ما.. صوتا ما في داخل الفراغ العاتي يقطر في نفسي موتا سخيفا.. لحظة انطلاق بعض الأشياء تبدو غريبة ومربكة وغير منسجمة مع حقيقة ما يتحرك. بدأ الصوت يفرز نفسه عن الخارج والداخل رويدا رويدا.. يسكب لحظاته كمطر لذيذ غامض، اللحظات التي فصلتني عن معرفة وإدراك سر ذلك الصوت كانت تمثل رحلة لفهم قصيدة ملغزة ولكنها جميلة ونادرة المفارقة أنها بدأت بلحظة عنيفة وموجعة. لقد كانت الآنسة ترشّ خوفها تحت ثيابها.. تتبول بشكل متواصل. شعرتُ بحالة استرخاء عجيبة، كنت جافا ولكنني مبتلا حدّ القاع.

- آنسة رجاء..

لم تجب إلا بعد لحظتين رشت خلالهما رشة واحدة. ثم سمعتُ صوتها منبغما خافتا.. وعادت أصوات الانفجارات المدوية لتطيح برجولة اصطُنعت للتو. تلمست طريقي إلى مكان رجاء وقرفصت بجانبها حتى الصباح.

-15 -

ستة أيام أمضيناها أنا والآنسة رجاء مقرفصين على وقتنا ومكاننا.. نتبول معا من شدة الخوف، نبتلع طعامنا بصعوبة وبأيدٍ باردة. كنا نتبادل أحاديث تدور حول تكهنات وظنون وأوهام لما سوف يأتي.. نبحر في لحظات إلى مجاهيلنا لنكتشف أننا ما زلنا صغارا جدا حد لا نملك تبريرا لخوفنا وهلعنا المستمر. قالت ذات لحظة هادئة

- لا اقصد شيئا ولكن أراك أكثر خوفا مني..؟ هل تخشى الموت يا أخ ثائر؟؟

لم يكن جوابي سوى محاولة لفهم السؤال، ربما كان يجدر بي أن أعترف أن الموت شيء لم أفكر به كثيرا بعد خروجي من السجن سوى في تلك الأيام التي شعرت خلالها بيأس رهيب وفكرت جديا بالانتحار والخلاص ثم سرعان ما تلاشت أما قبل السجن فلم يخطر الموت ببالي يوما، لكنني تجاهلت ذلك وحاولت أن التقط معنى كوني أكثر خوفا فقد كانت هي التي من بدأت التبول في الليلة الأولى. هل يمكن أن يكون ذلك مقياسا لشدة الخوف؟ صارحتها بذلك واكتفت بابتسامة ساحرة إلى حد لا يمكن وصفه، لقد كانت خريرا موسيقيا صامتا تستعذبه الروح.. ابتسامات الأنوثة كأجوبة لأشياء سفلى وسفلى جدا هي السحر الحقيقي لحواء... خمائل في ليلة زفافها بعد ملحمة افتراسي الوقحة أظهرت ابتسامات كافية لإسقاطي من صهوة أبي الذي قلّدني سيفا بدويا وقال لي عليك بها.. قاطعنا هديرٌ مدوٍ لقذيفة غريبة وكأنها تمر من فوق رؤوسنا ادركنا بعدها أنها قذيفة مقاومة أطلقها أحد المخبولين من بيته.. استبد بنا الذعر لدقائق طويلة قبل أن تأخذ دقات قلبينا بالهدوء والعودة إلى وقعها الطبيعي. سألتني عن حال أهل بغداد كيف هو الآن؟ واجبتها أنني أجلس قربك لا أدري ولكن من المؤكد أنهم يعانون الأمرين... أليسوا هم سكان العاصمة.. عليهم أن يتحملوا مرارة التبغدد كما تذوقوا حلاوته.. بالتأكيد لم يكن سؤال رجاء إلا مدخلا للاستفسار العفوي عن حبيبها لهذا وجدت ضرورة أن أهديء من هواجسها فأغلب قطعات الجيش هناك لم تدخل معارك جدية بعد مع أن الأمريكان يقتربون بسرعة من العاصمة.

في الليلة السابعة هدأت الأجواء وسقطت المدينة أخيرا بكاملها في يد الأمريكان. خامرني شعور بالارتياح والطمأنينة فقد تجاوزتنا

المعارك متجهة نحو الشمال، وبدأ في صباح اليوم التالي وجه رجاء بالتورد ثانية لقد زايلته قسوة تلك الصفرة المقيتة التي سلبتها الكثير من طراوتها وأنوثة ملامحها الريفية. في ذلك اليوم فكرت للمرة الأولى بما سيكون عليه الوضع بعد حسم هذه الحرب لصالح الطرف الأقوى.. أين سيذهب هؤلاء المردة الذين استباحوني دون خجل ؟ ماذا سيفعل الناس بجلاديهم الصغار؟ أسئلة من هذا القبيل الذي لم يكن له سوى ذهول حلم يستيقظ منه المرء مرارا عدة قبل إكماله.

الشيء الأكثر غرابة في تلك الأيام التي مر بعضها ثقيلا وبعضها الآخر بشكل سريع أنني لم أفكر بخمائل لحظة واحدة.. لم تصدق الآنسة رجاء هذا الأمر حين وجدت نفسي أحدثها عن ذلك بتلقائية أخوية.. أخوية إلى حد بعيد. غير أنني بعد هذه الالتفاتة طفقت مباشرة إلى تلك الغرفة التي خلقت لها حياة جديدة لم تعهدها. وقفتُ أتأمل في بعض الزوايا والأثاث البسيط الذي رتبته بطريقة معينة ليعيد ترجمة جمل وعبارات كابوسية لكي استيقظ بينها في لحظة قادمة ستأتي بل أصبحت مهيأة للمجيء أكثر من أي وقت آخر. جلست خلف المكتب الذي كنت اشتريته من قبل وزينته ببعض الأشياء من قبيل مزهرية جميلة ولافتة مكتوب عليها "وأكثرهم للحق كارهون" إضافة إلى دفترين ذي غلافين جذابين سميكين وقلمي حبر من النوع الفاخر وكذلك بضعة أوراق بيضاء مرتبة بشكل معين لا يقبل النقاش.. أجل لا يقبل النقاش.. وكان ثمة قدح ماء ومطفأة سجائر والشيء الوحيد الذي كان ينقص مشهد المكتب وقد حرتُ في كيفية جلبه هو هاتف أرضي ولو مجرد إطار أو دمية لكنني عازم على جلبه بالتأكيد في الوقت المناسب. في زاوية من تلك الغرفة ثمة عصيٌ وأسلاك كهربائية وتقف معها مكنسة يدوية ذات يد خشبية طويلة. على جهة الحائط المقابل لباب الغرفة علقت صورة الرئيس يقابلها على الجهة الأخرى صورة لمنظر امرأة تقوم برشّ أزهار ملونة

بالماء ويبدو خلفها طفل صغير يقوم بحركة عفوية لا أعرف ما تعني. تحت تلك الصورة هناك كنبة مصبوغة بطلاء رصاصي وإلى جانبها صندوق يحتوي على حبال متينة كالتي تستخدم في رزم القصب لبناء الصرائف وقد أشتريتها من مكان معروف في سوق المدينة إذ راجت فيها الأغراض التي تأتي من الريف خلال السنوات القليلة الماضية وأغلبها مما يتم اقتناؤه لعمل بيوت القصب. الجدار الذي يدور باب الغرفة باتجاهه كنت قد ثبت فيه قطعة حديدية لها نتوء بارز وقد اجهدتني عملية العثور عليها في سكراب داخل الشركة التي أعمل فيها فضلا عن قضية تثبيتها التي استلزمت العثور على مسامير طويلة وقوية تحتمل ما يمكن أن يعلّق بها مهما كان وزنه.

تفاجأتُ بوجود رجاء واقفة في باب الغرفة فلم يكن مني سوى المسارعة في الخروج وشاكست رغبة فضولها في الدخول إلى هناك. لكنها لمحت المكتب وسألتني عما إذا كان مكتبا للقراءة وهل هناك مكتبة في الداخل لأنها تحب القراءة والمطالعة فأجبتها الا وجود لكتاب في غرفتي بل في بيتي على الإطلاق.. فأعادت ترتيب وجهها بما يتم بخيبة أمل أزعجتني كثيرا.

لم أجد بداً من التفكير بالذهاب إلى الريف وإعادة خمائل لكن المشكلة أن الآنسة رجاء لم تظهر نية في الانصراف إلى أي مكان آخر. على أن لي أن أفكر بعودة أخرى، أعني إلى عملي رغم معرفتي أن أغلب الموظفين لم يعودوا إلى وظائفهم بعد وأن أغلب المؤسسات والشركات تتعرض للنهب والحرق ومنها الشركة التي أعمل فيها. قررت سؤال رجاء عما تنوي عمله في حال انتهاء الحرب ؟ لم تجب على الإطلاق اكتفت بالصمت وبعد لحظات سألتني عن الموعد الذي أتوقعه لتنتهي هذه المعارك؟ تنبأت أن القضية لن تطول أكثر من شهر أو شهرين على الأكثر أما هنا فبوسعنا القول إن الحرب قد انتهت.. أدركت أن رأيي كان رأيا سخيفا جدا بعد أن أخبرني أحد الجيران

الذي كلّفته بشراء بعض الخضر والفاكهة من فضاء قريب من مركز المدينة إن الدولة هناك بكامل قوتها وأن أعضاء الحزب الحاكم يحكمون فعليا والحرب ستستمر لوقت لا يعلمه إلا الله.. كان ذلك في المساء أما في الصباح التالي فقد تغيرت الأمور كليا حيث سقطت العاصمة وانتهت القصة تماما.

تلقت رجاء الخبر ببرود وراحت تحدثني عن أحلامها التي رأتها ليلة سقوط بغداد.. كانت احلاما مفزعة ليس أقلها أنها رات نفسها تتزوج من ذلك الرجل الذي اختاره لها أخوها الأكبر وأنه كما قالت افتض بكارتها بقسوة. وانها حين دخلت غرفة الرجل لابسة ثياب العروس وجدت على السرير جثة حبيبها مضرجة بالدماء وقد تشوه وجهها ويترت أطرافه باستثناء يده اليسرى فقط مع أن أردان قميصه العسكري وبنطاله كانت سليمة لكنها خالية من أطرافه .. في حلم آخر رات رجاء نفسها في طائرة مروحية كالتي شاهدتها وهي تحوم على منازل الحي من النافذة. قالت إنها كانت خائفة من العلو المرتفع وعلى حين غرة دفعتها يد قاسية لتهوي إلى الأرض، لكنها حين سقطت لم تصب بأذى بل فرت هاربة فيما راحت تلك الطائرة تلاحقها وهي تطلق رشقات مرعبة من الرصاص وراءها. وجدتها فرصة مؤاتية لأتحدث عن أحلامي كذلك وهي مقاطع زائفة لواقع لا افقه من مجرياته الكثير. شعرت في لحظة ما وأنا اقص إحدى كوابيسي تلك انني أتحدث بهراء لا معنى له فقطعته ورددّت لها: إنها مجرد أحلام تمثل خلاصات تافهة لنهاراتنا وصحونا المثقل بالمديد من الأشياء التي لا قيمة لها.. إنها ببساطة أشياء تبحث عن قيمة لنفسها فتاتي احلاما وكوابيسَ تجبرنا على الإهتمام بها.. أليس كذلك؟

كنتُ في ورطة حقيقية ذلك اليوم فلم يعد بالمستطاع التغاضي عن الذهاب لإعادة خمائل ولكن ماذا أفعل مع رجاء؟ هل أطلب منها العودة إلى أهلها أو السفر إلى العاصمة المضطربة ولا شك للبحث عن

تنوي فعله ولكم كانت رحومة بي حين قالت لي في المساء: الا تنوي إرجاع زوجتك؟ اعتقد انها تنتظر ذهابك إليها لقد بدأت الأمور تستتب. نعم ولكن.. ومن هذه الـ لكن فتحت رجاء ابوابها المغلقة معلنة أنها ستبقى معي عدة أيام وهي بشوق لرؤية خمائل. لم يكن بوسعي التغاضي عما يمكن أن يكون عليه الحال عند عودتها لترى أمامها امرأة أخرى. لا شك ستجد خمائل فرصتها الذهبية في طلب الطلاق مني أو إثارة مشكلة تمنحها فرصة الذهاب إلى بيت والدتها وهناك سيكون هاشم هو الرابح الأكبر.. هل حقا لا تعرف رجاء حجم المشكلة التي يمكن أن تتسبب بها في بيت رجل متزوج وينتظر إعادة زوجته؟ هل تنظر هذه الحواء إلى الأمور بكل هذه البساطة؟؟ يكاد يكون أمرا مستحيلا فللنساء عقول متشابهة ولحظة من التفكير الخاطف يمكن أن يدلّها على حقائق جلية. قبل أن آوي إلى النوم قررت أن اكون مباشرا وواضحا مع الآنسة رجاء. ترددتُ أكثر من مرة في طرق باب الغرفة التي استضفتها فيها وهي غرفة نومي أنا وخمائل بعد ليلة واحدة من دخولها بيتي فيما كنتُ قد اتخذت منامي في غرفة الاستقبال تارة وفي تلك الغرفة المرتبة والمزوقة تارة أخرى، وأخيرا طرقت الباب ودخلت بهدوء. استقامت أمامي كجذع نخلة محملة بالرطب، كلوحة ملونة تتحرك في مخيلة رسام ماهر.. لم تكن قد لملمت اشياءها الباذخة بل تعمدت شيئا من الفوضى المحببة. وقبل أن أبحث عن عبارات أكثر أدبا وأقل وقاحة بادرت هي بالقول:

- هل ستشعر خمائل بالغيرة مني؟

تبسمت ببرود وفتور وأجبت بتصنع واضح

- الحقيقة نعم.. تعلمين طبيعة النسوان.. خمائل من النوع الغيور جدا جدا..

لم يكن بصيص الشمعة التي قاربت على التلاشي كافيا لرؤية ملامح رجاء بدقة.. لكنها كانت ملامح خبيثة، لقد تغيرت تلك البراءة السابحة على فروعها وأوراق طفولتها إلى خبث حقيقي... بوسعي أن أجزم بذلك تماما.

- ولكنّ للغيرة أسبابا وجيهة.. لا أرى ثمة واحدا منها ليدفع زوجتك إلى ذلك؟

- إنها سلوك طبيعي قد لا يكون له سبب منطقي مقنع.. ولكن يجدر أن تفترضي ذلك

أدركت رجاء المكان بإيقاد شمعة أخرى، وكانت التفاتاتها مثيرة.. غنج غريب يطفو على مشهد حواء الريفية. يا الله كم تشبه بحركاتها خمائل وهي في أوج حرارتها الداعية لكلّي أن أنغمس في أتونها كله! نظرت إليها بتوحش وبادلتني ذات النظرات ولكن سرعان ما انكفأ شيء في داخلها ثم في داخلي. ضربت بيدها على فخذها من وراء ثوبها البنيّ وأعقبت ذلك بابتسامة مختالة لكنها غاية في اللذة.. لم أعِ بعض اللحظات التي ترنحت فيها ذاكرتي محاولة الاستيقاظ من إغفاءة طويلة.. ولكن همسات رجاء كانت خليطا ثقيلا من الألغاز والأسرار والدهشات. يمرّ الوقت صامتا وهاذيا معا، حاولتُ أن أغير جلستي ولكنني وجدتُ نفسي مقيدا بمكاني لا أقوى على تحريك أي عضو من أعضائي.. سكون يتعلق بلذة تشبه تلك التي ابتكرها خوفنا في الليلة الأولى تحت وطأة القصف العنيف واهتزازات الجدران والنوافذ. السكون الذي أبتلّ بسيل من الجبن تحت ثيابنا. سمعتها وأنا واثق مما سمعت تهمس لي: كيف لم تطلب خمائل منك الطلاق؟

للسؤال وجه واحد كآبة حقيقة كريهة. الحقائق الكريهة تثير الاستغراب.. ماذا؟ لماذا تطلب مني الطلاق؟ تجاهلتُ هذا السؤال المستغرب وانتقلتُ إلى سؤال آخر طرحته بطريقة سهلة.. عفوية..

كالسؤال عن معنى كلمة طرقت سمعها مرارا ولكن دون ان تعلم معناها .. قالت رجاء: هل تعلم ان من حقها أن تطلب طلاقها وسيحكم لها في المحكمة بسهولة بعد أن يثبت انك عاجز عن معاشرتها الزوجية.

تحجرت بإرادتي ولا تقولوا لي كيف؟ شئت أن أكون صنما. أزعجني الشعور بنبضات قلبي المتسارعة، كان الوقت يمضي والشمعة تذوب بهدوء على الطاولة القريبة من فخذ رجاء. بعد وقت فقت من غيبوبتي وادركت أنني كنتُ أهذي في حضرة رجاء، اعهر نساء الأرض.. خرجت من الغرفة بجزء كان مفقودا من ذاكرتي.. هكذا أقنعتني هي ولم أجد سببا لتكذيبها مطلقا .. لقد كنت ماردا خبيثا في ليلة القصف.. لقد اكتشفت انني لم أكن جبانا ولم اتبول على نفسي قط.. بل تمثلت كرجلٍ رهيب هبَّ على صهوة ليلته تلك ولكن سقط سيفه فجأة في قلب المعركة وهذا أمر قد يحدث...

ملأتني رجاء بأشياء جديدة. وتحولت في داخلي أماكن مستقرة لتستباح من قبل اماكن اخرى أكثر قلقا واضطرابا.. عليّ أن احسن التعامل مع وضع غريب لم أكن في وارد توقع حدوثه بهذا الشكل المباغت. عدتُ إلى الغرفة ووقفت امام رجاء وهي لم تزل جالسة على حافة السرير، ثم جلست ثانية إلى جانبها، وقفتُ مرارا وجلستُ مرارا وهي تتحدث بأحاديث شتى، خاضت بأدق اموري واكثرها خصوصية وحرجا، كانت رقيبا قدريًا خاصا بي.. كشفت لي جوانب غامضة من سيرتي خلال الأسبوعين الماضيين وكأني كنتُ غائبا عن وعيي، ميتا يتحرك بإرادة خارجية عنه كأحد الحثالات المشوهة التي تترنح في فيلم ليلة قيامة الموتى .. طوانا الوقت بأشياء سخيفة لا معنى لها، أسئلة وأجوبة تُكرِّر السؤال، أسماء وحكايات قصيرة ربطتها رجاء بطرق مختلفة لتفهم عالم ثائر مجدول الذي بلا هوية بلا آية مميزة بلا دلالة مجدية ومفهومة.. خلطة كريهة لحيوان ناطق مبتور الوجود مجزأ

الأعضاء لا ترابط بين مادياته ومعنوياته.. قالت لي وهي تشير إلى الصورة المعلقة في الجدار أمامها بالضبط:

- خمائل جميلة جدا كيف قبلت بالزواج منك..؟

أردت أن أقول لها قبلت كما قبلت بمرافقتي إلى هنا.. قبلت كما قبلت النظر إلى بلقمي وتقليب أوراقي بحثا عن سطور يتلوها شيطانك.. بيد أن سؤالها الأخر كان سريعا وسريعا جدا

- هل استمتعت معك قبل أن يفعلوها بك؟

سارعت إلى القول: نعم.. غاية الاستمتاع.

لكنها ضحكت.. ضحكت بجنون وكادت تستلقي استلقاء تام على السرير لولا أن الشمعة اللعينة انطفأت على غفلة وساد ظلام حجريّ كهفيّ في لحظة لم تكن عبثية أبدا، لحظة يرمي بها القدر لحكمة متعالية.

حين أشعلت شمعة أخرى لم أكن في المكان، خرجتُ إلى الغرفة الثانية المضاءة بفانوس على ذلك المكتب. جلست خلفه وقلّبت الأوراق البيضاء بين يديّ باحثا عن نقطة سوداء .. نقطة واحدة تصلح للانطلاق من هذا المزيج الباهت من الضوء واللا ضوء من الظلام واللا ظلام ..

هناك أعدتُ ترتيب العديد من الأشياء داخل الغرفة وداخلي أيضا. وجّهتُ الأمور بشكل مختلف عن السابق غير أن إعادة التوجيه كشف عن نواقص رهيبة واختلالات واضحة لم تكن تتكشف لي لولا همي بهذه التجربة. لم يكن لي بد من التفكير بمزيد من الترتيبات والخيارات العاجلة لكن الوقت لا يبدو في صالح هذه الخطوات المنتظرة. في الساعة الثالثة صباحا قررتُ السير باتجاه باب المنزل، الحقيقة إنني لم أسمع الطرقات الخفيفة عليه كانت مجرد رغبة لاستطلاع الزقاق والتأكد من شيء ما يجب أن يكون مناسبا لمشهد ليلة القبض على ثائر مجدول. فاجأني هاشم وهو يرتدي ملابس ريفية

أنيقة وجديدة، عباءة وكوفية وعقال وشارب غليظ لا أعرف متى تمكن من زرعه في وجهه.

كنتُ في وضع أقل ما يقال أنه قلق، لكنّ دخول هاشم وإن أضاف شيئا من التعقيد إلا أنه دفع بخطواتي للتوازن أكثر. لم يخفَ أن هاشما لاذ بالهرب من منطقته وها هو ذا يفضل الاختباء في بيتي. سأل عن خمائل وأصابه ذهول واضح حين علم أنها في الريف. كان يدخن بشراهة وقد فقد وجهه تلك النضارة المعهودة، شيء ما مختلف في نبرة حديثه وعيناه راكدتان تماما. بعد لحظات نزع كوفيته وطوّح بها قريبا مني ثمّ خلع ساعته اليدوية كمن يلقي عبءا أرهقه. طلب قدحا من الشاي وذهبت إلى المطبخ لإعداده، كنتُ استجمع بعض الخيوط التي تصلح لنسج لعبة جديدة في ذهني لكنّ سماعي لهاشم وهو يتحدث مع نفسه بضجر جعلني أفكر به.. بوضعه الجديد.. بحياته بعد هذا الانقلاب الرهيب لكل شيء من حوله. انصرفت عن التفكير بتلك اللعبة التي كانت بداياتها قد استقرت في غرفة النوم وأنا أحدق بفخذ رجاء الذي كان شهيا تحت ثوبها البني الملتصق بجسدها. في لحظة عودتي إلى غرفة الاستقبال حيث يجلس هاشم وقفت رجاء أمامي مستفسرة بهمس لا يخلو من نبرة خوف عن الضيف الجالس في هذا الوقت في غرفة الاستقبال. أخبرتها أنه هاشم أحد أصدقائي.. لا أدري لماذا كانت الكلمة الأخيرة قد خرجت مني معبأة بزهو وألق واضحين. لم تكن لها ردة فعل حيال الموضوع، واكتفت بالعودة إلى الغرفة لإكمال نومها. ظلّ هاشم يتحدث لي عن الأهوال التي خاضها وخاضته خلال فترة الحرب وكيف أنه فلت من الموت مرتين بشكل لا يصدق، كانت حادثة الطريق العام الذي توغلت من خلاله القوات الأمريكية حادثة غريبة حيث نجا هاشم وسط عربدة الموت بشكل شبه هناك، قضى خمسة عشر من زملائه في مهمة التصدي لرتل عسكري كان يتقدم باتجاه طريق استراتيجي يلتف حول الجزء

الغربي من المدينة وسط بعض القرى والمناطق المنخفضة التي تقع على جانبي نهر الفرات. عربة الحمل المكشوفة التي كان يتكدس فيها هاشم وجماعته انقلبت على حافة النهر وتم إردافها بصاروخ طائرة مروحية كانت ترصدهم. إلا أن هاشما خرج حيا وهو لا يصدق كيف حدث هذا الإنقلاب العجيب في شرنقة صغيرة لمنية محققة. لم يجرؤ على مغادرة حفرة صغيرة وجد نفسه مختبئا في داخلها إلا بعد خمس ساعات حسب تقديره ثم عاد وشكك بهذا التقدير مرجحا أنها ثمانية أو تسع حيث امتد قبوعه هناك حتى اليوم التالي وحين خرج من تلك الحفرة وجد بقايا بشرية منتشرة حوله، أرجل وبقايا أيد مشوهة وكتل من اللحم، لكن المنظر المؤثر هو رأس صديقه الذي سلخت مقدمة جبهته واحترقت عيناه بشكل غريب فيما كانت ملامحه الأخرى جامدة لم تتغير. لم تكن الصورة التي رسمها هاشم مقرفة قرافة منظر أبي بلقيس حين تم تهشيم رأسه وإخراج جزء من دماغه.. وجدت نفسي أسأله عما إذا كان جزء من دماغ صديقه قد خرج؟ لكنه أجاب إن شيئا من هذا لم يجذب انتباهه. قال هاشم وهو يستلقي مظهرا رغبته في نوم ليلة هادئة:

- هل تدري أنني مسرور لسقوط الحكومة؟
- لا أعتقد فأنت لن تستفيد شيئا من هذا التغيير.
- على العكس لو تركوني سالما فسأحقق أحلاما كثيرة في الوضع القادم
- لن يتركوك.. فأنت من بقايا غير جديرة بالبقاء
- ربما في نظرك .. فأنا لم يهددني أحد حتى الآن. لستُ منتميا للحزب ولا أعمل في أية دائرة حكومية.. الكل يعرف ذلك. فقط احترست من وشاية كيدية ولهذا آثرت الابتعاد عن الأنظار لبضعة أيام.

لم يستيقظ هاشم إلا في الساعة العاشرة ضحى وما أن همّ بغسل وجهه وترتيب شعره حتى كانت رجاء تخوض معه حديثا متشعبا عن

أمـور لا أعـرف كيـف اخترعتهـا مـن اللاشـيء. واصـلا ذلـك اليـوم أحاديثهما من غير انقطاع. كانا يبدوان مـرحين ومنسجمين للغاية مع بعضهما بعضا. واختفيا مرتين في زاويتين مختلفتين في منزلـي. قـررت هذه المرة الذهاب إلى سوق المدينة بدلا من تكليف أحد جيراننا بشراء الخـضر والخبـز وبعـض الحاجـات البـسيطة. كانـت المدينـة سـحابة كئيبة سقطت على الأرض.. امرأة مجنونة طرحت نفسها بعد ركضة ماراثونيـة علـى كومـة مـن القمامـة.. الـشوارع لم تكـن سـوى ذاكـرة صامتة بوجه الزمن الذي نقش فيها أسماء وعبارات غامضة لا تشير إلى اي معنى معروف. أشخاص يرتدون وجوها صارمة تناسب المشهد بدقة عالية وذوق محترف.. فيما كانت عربات عسكرية تظهر بين الحين والآخر سائرة بهـدوء وسـط نظـرات الـسابلة الفير ذات معنى. كان في بداية السوق أشخاص افترشوا الأرض لبيع أغراض غير مألوفة رخيصة الثمن بل بـلا ثمـن يـذكر.. وتعلقت رغبتي بشراء مسدس عيار تسعة ملـيم وبـزة عـسكرية كاملـة زيتونيـة اللـون كـذلك سـاومت أحـد الأشخاص على سعر مدفأة كهربائية رغم انه سعر بسيط ويقل عن سعرها قبل الحـرب إلى الثلثين أو أكثـر. عـدتُ إلى البيـت حـاملا تلك المدفأة على أمل العودة بعد جلب النقود التي كانت تمثل البقية الباقية مـن الأربـاح الـتي دفعتهـا الـشركة لـي. كـان المبلـغ ينقص قليلا عـن المطلوب لشراء تلك الأشياء ما اضطرني لإكمالها من هاشـم الـذي لم يتردد عن إعطائي المبلغ. في الساعة الثالثة ظهيرة ذلك اليوم الذي كان مشمـسا وحـارا عـدتُ وفي حـوزتي تلـك الأشـياء إضـافة إلى كيلـو مـن الطماطم وآخر من الباذنجان مع عـدد مـن أرغفـة الخبـز ونـصف طبقـة من البيض كُسِر منها القليـل أثنـاء نزولـي مـن سـيارة الأجـرة علـى أثـر مزاحمة مع إحدى السيدات. حرصتُ علـى ألا يـرى هاشـم تلـك الأشـياء وسارعت إلى إخفائها في تلك الغرفة وإقفال البـاب. فيمـا ذهبت رجـاء لعمل كبسة الباذنجان والطماطم وقلي بعض البيض. كان هاشـم قـد

استردّ ملامحه الفارهة المنتعشة، وتألقت عيناه بجذوة حياة رائقة لا يكاد ينغصها شيء. فيما بدت رجاء أكثر خفة ورشاقة في حركتها واتضحت قدراتها في الكلام المراوغ وابتكار النكت والعبارات الرقيقة التي تعلق بها على أشياء صغيرة للغاية. جلسنا نتناول الطعام وأثناء جلوسنا قام هاشم بحركة مع رجاء صرخت على أثرها ثم عادت لتقهقه بمهر. سألها عند تناولنا الشاي عن مكان سكناها وبماذا تفكر مع استقرار الأمور؟ أجابته بكلمة نابية فيما تساءلت أنا مع نفسي عما كان يتحدثان به طيلة الوقت إذا لم يكن يعرف من أين جاءت هي! المساء يقترب بمزيد من تحسن الأجواء وكانت ثمة أصوات لانفلاق القنابل غير المنفلقة تقوم بمعالجتها الفرق الهندسية للجيش الأمريكي في الساحات والشوارع الرئيسة. كانت رجاء تجفل مع كل انفجار ثم تعود لتقهقه مع هاشم الذي كان يتحدث معها بمقاطع مهموسة.

لا يبدو ثمة ما سيختلف تحت عباءة تلك الليلة وهي تسدل على المدينة ظلمتها الكابية، فهاشم ورجاء ينويان على فراش زوجتي فيما كنت أنا مقيدا بترددي في دخول غرفتي الأخرى ومراجعة تلك الأشياء التي اشتريتها خشية أن يخرج هاشم ويدخل إلى هناك حينها ستبدأ أسئلته المقرفة التي لا تنتهي. شعرتُ بدوار وآثرت الاستلقاء على فراشي في غرفة الاستقبال، قادتني بعض الأفكار إلى دهاليز قصية من ذاكرتي وجمعتني أخيرا على ما يشبه الكابوس.. كان ثائر مجدول يقف أمامي، يمزّق ثيابه ويذرف الدموع وكان صراخه عجيبا حقا، يشبه صراخ امرأة يتم اغتصابها بوحشية. كان ثائر ماردا لعينا يحاول افتراسي وتدمير كل ما حولي ورأيته يجذب خمائل من شعرها ثم يسحبها على الأرض فيما يتمسك به هاشم طالبا الرحمة والغفران ويصرخ ثائر لست من يرحم لست من يغفر.. لماذا لم ترحموني لماذا لم تغفروا لي.. لماذا لم يرحموني.. لماذا لم يغفروا لي.. لماذا أرحم إذاً؟

استيقظت بهدوء.. بجمود.. بشيء من اللامبالاة، وسمعتُ كركرة رجاء، استعذبتها وكأنها نغمة موسيقيه، كان الإنصات إليها كفيلا بإعادتي ثانية للنوم، لأعود أرى ثائر مجدول يقابلني ويجلس بقربي هذه المرة وادعا وملاطفا .. يعبث معي ويحاول مدّ يده إلى جزئي الأسفل، يتلمس فراغي هناك ويعيد وجهه ليقابل وجهي تماما ينفث أنفاسه الدافئة ويهمس.. ثائرا ثائرا.. وأغمضت عيني عنه.. كان المنظر مفزعا رغم هدوئه رغم ألفته وغرائبيته المعقولة التي لا تثير سوى الشعور بمعنى ان يكون الإنسان حالما يجوب رحاب أخرى يفقد فيها جزءا من حقيقته الثقيلة. لكنني فتحت عيني ثانية لأرى ذلك المارد، ضابط التحقيق الذي قضم ثلاثة أرباع وجودي لرفضي اغتصاب تلك الحشرة المسحوقة على الأرض. صفق بيديه صفقة مدوية خرقت طبلة أذني وضحك مقهقها قبل أن يتوارى كل شيء لأصحو على صوت إطلاقات نارية كانت قريبة جدا.. إنها في داخل المنزل لاشك في ذلك. بقيت جامدا على فراشي ورأيتهم يخرجون بهدوء، مجموعة من الرجال الملثمين يحملون في أيدهم ما لم أستطع تبيّنه لكنه بلا شك أسلحتهم.. لم ينقص ذلك المشهد سوى أن يلقوا تحيتهم عليّ ليكتمل حلم تتوائم مقاطعه بشكل فنطازي ولكنه يبدو أكثر من كونه واقعيا وحقيقيا.

كانت صرخة رجاء الشيء الوحيد الذي عاث خرابا بي .. بعثرني على طاولة صغيرة من التكهنات السريعة التي هي أثقل من ذهول مرير. خطوتُ خطوات متعثرة إلى غرفة النوم لأجد جثة هاشم غارقة في دم أسود فيما كانت رجاء واقفة منذهلة وهي عارية، عارية تماما من ثيابها.

-16 -

قُتِل هاشم بين أحضان رجاء وفي الصباح لاذت رجاء بالهرب، ذهبتْ إلى حيث لا أدري. فيما ظلت جثة هاشم مكانها. كان منظره يثير الشفقة وهو بذلك الصمت الرهيب والملامح الجامدة الكئيبة، من يرها يخيل إليه أن صاحبها لم يعرف لحظة واحدة من الانشراح، لم يبتسم مطلقا فالموتى يتساوون في أحزانهم وملامح تقطيبهم.

لا يصعب تفسير عملية قتله على الأقل بالنسبة لي فهو أمر متوقع حملا على ما حدث ويحدث. تركت جثة هاشم مكانها لساعات من اليوم التالي قبل أن أقوم بدفنها في حديقة المنزل الجرداء وبالضبط قرب المكان الذي دفنت فيه ذلك الكلب الأحمر. لم يدر في خلدي أن تتحول تلك الرقعة الصغيرة من الأرض إلى مقبرة كما دار في كابوسي السابق الذي عشته في لحظات ماردة انتهت بتهشيم رأس مارد لاهث.. حفرت حفرة مستطيلة، لم أمارس من قبل عملية دفع جثة آدمية ولكن أعتقد أنها عملية غاية في السهولة لا أحتاج فيها إلى غراب يدلّني على كيفية عملها . لم أكفن هاشما ألقيته كشيء في باطن الحفرة وأهلت فوقه التراب ثم سويته بشكل لا يكاد يترك أثرا في المكان سيما وأن رطوبة التربة ووحالة جزء منها هناك ساعدني على إخفاء الأثر خاصة عن خمائل حين تعود. للحظة ترددت فكرة أقرب إلى الندم كيف إني لم أوجه رأس هاشم إلى القبلة.. كانت لحظة سخيفة حقا أن أفكر خلالها بشيء من هذا القبيل لرجل قضى نحبه في حضن عاهرة. رجعت إلى غرفة النوم ووجدت أن الشرشف المزركش على سرير خمائل وقد غرق بدماء هاشم أصبح صالحا لتأدية غرض مكمّل فطويته وألقيته في الغرفة الأخرى.

لم أجهد في التفكير بالرجال الذين اقتحموا بيتي وقتلوا من يفترض انه صديقي ولماذا تركوني ومروا بي بسلام؟ بل الحقيقة إنني سرعان ما نسيتُ القضية بمجملها ولم افكر بها سوى لوقت قصير، ثم انصرفت للتفكير في إعادة خمائل وهذا ما فعلته في اليوم التالي حيث خرجتُ من منزلي في ساعة مبكرة ناشدا تلك القرية الريفية. لم أجد هناك ثمة ما يدل على تغيير من أي نوع. كانت خمائل مستأنسة برفقة بنات قريبي وكما أخبرتني هي إن الأمور هنا كانت هادئة مقارنة بما ينقل من أخبار عن المدينة وما حدث فيها. قضيت ليلة هناك كانت بحق رائعة وجذب انتباهي أن خمائل فرحة ومبتهجة وقد زاد وزنها كيلوغرامات أخرى من الشحم. لم أخبرها بحادثة مقتل هاشم على سريرها مع امرأة جلبتُها إلى البيت اثناء عودتي من هذه القرية قبل اكثر من أسبوعين. بل قررت الا اخبرها إلى اجل سأسميه لاحقا وفقا للظروف.

في طريق العودة راجعت مع نفسي الخطوات التي قمت بها لتنظيف غرفة النوم من أية آثار لما حدث، يجدر بي الاعتراف انني وجدت في الحقيبة التي كانت لدى هاشم مبلغا كبيرا من المال وحلي ذهبية خبأتها في غرفتي المجاورة. لم أجد ثمة خللا أو خطأ قد حدث وهذا ما ثبت بعد يوم من عودة خمائل حيث لم تسألني عن اي شيء غريب أثار انتباهها سوى ثوب نسائي جديد كان معلقا بمشجب في الحمام قالت انه ليس لها وسهل عليَّ الإدعاء انني نسيت إخبارها بشرائي له حين كنتُ اتسوق بعض الحاجيات وسأشتري مستلزمات أخرى من هذا القبيل لرخصها المفاجئ هذه الأيام اما وجوده معلقا هناك فلأنه ثوب مستعمل وفضلت غسله غير انني نسيت فعل ذلك ودعوتها أخيرا لغسله جيدا قبل ارتدائه إذ يقولون إن ملابس البالات تحتوي على فيروسات وجراثيم لأمراض خطرة كالإيدز.

لم تكن الأوضاع مؤاتية بعدُ للعودة إلى العمل، فقد كانت الفوضى هي المشهد السائد لكل شيء.. وفوق كل شيء.. وتحت كل شيء.. لكنّ إصرار خمائل على تفقد مكاني في وظيفة الحراسة الليلية الجاني إلى الذهاب لأعود دون أن أظفر بإجابة لما كانت تتساءل عنه إذ لم أجد شيئا يذكر هنالك سوى مجموعة من الشباب يقومون بإزالة الشبابيك الحديدية من مبنى الإدارة الذي لم يبق منه سوى جدارين إلى النصف وفي مكان آخر كان ثمة أطفال يجهدون بسحب جزء حديدي لماكنة كبيرة محروقة. قفلت راجعا للبيت وحين سألتني خمائل بلهجتها المتعالية لم أجب. لقد أدركتُ حينذاك أن قانون ثائر مجدول جدير بالسيادة الآن.. وأدركتُ أيضا أن الوقت قد حان للثأر.. كما يثأر هؤلاء الناس الذين رأيتهم في كل مكان رجالا ونساءً كبارا وصغارا بعضهم كان ينهش حتى الطريق ويحفر في الإسفلت ليقتطع منه جزءا يلقيه جانبا.

دفعتها من كتفها حين ألحت بالسؤال، رمقتها بنظرات حادة وعندها انطوت خمائل وانسحبت أمامي إلى المطبخ. كان طبيعيا أن تعود لسؤالي بعد ساعتين أو ثلاث عن هاشم وهنا لا بد من الرد فأخبرتها أنني سمعت أنه قد هرب من المدينة والأرجح أنه فرّ خارج البلاد.

-17-

كانت خمائل قد استغرقت في نومها، ما لاحظته عليها منذ عودتها أنها تلجأ إلى النوم مبكرة وكأنها اعتادت ذلك خلال فترة تواجدها في القرية. كنتُ أشعر بالضيق لا سيما وأن درجات الحرارة ارتفعت بشكل مفاجئ ولم يعد النوم في الغرفة مريحا. قررت الخروج

إلى الحديقة والنوم هناك غير أنني لم أكمل تنفيذ هذه الرغبة وذهبتُ إلى الغرفة الثانية. فتحت الباب بهدوء وتأملت كل شيء فيها. في تلك اللحظات حدثت مفاجأة غير متوقعة حيث عاد التيار الكهربائي وأعقبه إطلاق نار كثيف لم أغفل عن كونه تعبيرا عن الابتهاج بهذه العودة الميمونة التي كانت منتظرة منذ الصباح بناء على أخبار تناقلها الناس من مصادر موثوقة كما قيل. سارعت إلى الخروج من الغرفة وإيصاد بابها بإحكام خوفا من مجيء خمائل لتسألني عن هذه الاطلاقات الكثيفة التي تسمعها، وقد تطرح أسئلة إضافية كما طرحتها من قبل عن بعض الأشياء التي وضعتُها في غرفتي. عدتُ لأجدها نائمة.. اكتفيت بفتح المروحة السقفية وإغلاق نافذة الغرفة المطلة على الممر الخلفي والتي كنا ننتظر نسمات الهواء تدخل منها عبثا. ومرةً أخرى عدتُ لأتأمل أشيائي، افكر في ترتيب أكثر اتقانا مما هو موجود. المكتب مقابل الباب وقد استقرت فوقه بعض الأشياء الصغيرة أوراق بيضاء وقلمان ومطفأة ولوحة منقوش عليها تلك الآية الكريمة التي تقطع بكراهية الكثير من خلق الله للحق ورغبتهم في الباطل.. الكنبة الرصاصية في موضعها الصحيح وهناك كرسي أمام المكتب معد لجلوس المتهمة، أما خلف ذلك المكتب فكرسي المحقق ثائر مجدول وتمسكن خلفه صورة الرئيس معلقة بشكل مائل من الأعلى، الحبال والعصي والأسلاك في مكانها الصحيح هي الأخرى. على الحائط الذي يكون على جهة يسار المحقق هناك مشجب تعليق الكائن المتهم وهو أقرب ما يمكن بلوغه ضمن إمكانياتي المتواضعة والأهم هو تنبؤ شكل المعلّق ووضعيته وليس ثمة أهمية كبرى لشكل وسيلة التعليق. جدران الغرفة مطلية باللون الأبيض أما السقف فتركته كما هو لأنني لا أذكر شكله ولونه تماما غير أن وضعه الحالي لا يبدو غريبا بل منسجما تماما مع المشهد. لم تكن الأرضية مفروشة بشيء كما هي غرفة التحقيق، أذكر هذه الأرضية بشكل واضح،

لقد تقيأت عليها مرارة من شدة الضرب وكانت بركة المرأة التي تيبس هيكلها هناك واضحة أمامي فهي كانت قد رسمت حدودها على البلاط دون فاصل من أي نوع. الجرس المعطل لم يكن إصلاحه ضروريا لكوني سأمارس مهمتي دون مساعدين، لن أطلب المساعدة من أحد. لكن عودة التيار الكهربائي أظهر ثمة نقصا في مصابيح الإنارة حيث يفترض أن يكون هناك فوق صورة السيد الرئيس مصباح فلورنست وآخر على الصورة التي تقابلها حيث المرأة التي ترش زهورا ملونة أمامها. إذن أنا بحاجة إلى مصباح ثانٍ فوق صورة السيد الرئيس. طفتُ زوايا البيت بحثا عن مصباح أغير مكانه إلى هناك ولم أجد سوى المصباح الخارجي. قمتُ بفكه من مكانه بعد أن قطعت التيار الكهربائي من لوحة التحكم الخارجية وأكملت شده في الغرفة بعد تعثر دام نصف ساعة حيث احتجت إلى مسامير للتثبيت عثرت عليها في نهاية جهد ضائع في الحمام إذ كانت خمائل قد اتخذتها كمشاجب لتعليق ملابسها عند الاستحمام. كان علي الحذر والعمل بهدوء منعا لإيقاظها وبالفعل تم كل شيء كما أردت.

أعدت وصل مفتاح التيار الكهربائي وبدت الغرفة كاملة التجهيز. عانيت من حيرة بشأن المدفأة التي لا أذكر أين يمكن وضعها ولكن قررت في النهاية تركها بالقرب من الكنبة الرصاصية فهي على أية حال لن تُشعل لأن حرارة الغرفة كانت غير مناسبة لإيقادها. جرّبتُ ارتداء البزة الزيتونية وكانت مناسبة لمقاسي كذلك الحذاء الأحمر الذي جلبته معها، لكن بدت أردان القميص طويلة نوعا ما.. ليست مشكلة فيمكن طيها بسهولة وتجاوز هذه المسألة الصغيرة. تأملت نفسي في المرآة الصغيرة المعلقة على الحائط قبالة المكتب، هناك في تلك المرآة لاح وجه ضابط التحقيق الأرعن بعينيه الثاقبتين، كان يهمّ بضرب وجهي برأسه .. يا له من مخبول، لم يستوعب بعد أن الأمور قد تغيرت.. لم يعد هو الحاكم بل أنا .. لم يعد من يقوى على إصدار

الأوامر وتجريب قبضته اللعينة في بطني وصدري .. لقد تغير كل شيء ولم يعد بإمكانه أن يكون هو.. إنني أنا وحسب. سمعتُ كلمات الشيخ راضي التي قالها عقب يوم من قتل أبي بلقيس من قبل أحد المحققين في المديرية، لقد قال الشيخ: إن الله يمهل ولا يمهل وتكفلت أنا بالتصحيح لعبارته قلت: إنه يمهل ولا يهمل فأجابني: نعم أقول يمهل ولا يهمل .. لكنك قلت يمهل ولا يمهل.. يا أخي أنه يهمل ولا يمهل.. اعني يمهل ولا يمهل.. صحيح .. ماذا قلنا إنه يمهل ولا.. شلون؟ يهمل! يهمل صحيح تماما.. صحيح يا شيخ. جلستُ خلف المكتب، تسرّب إلى نفسي شعور رغيد وهانئ.. جلوسي هنا دليل مؤكد على أن صورة المحقق التي باغتتني في المرآة لم تكن أكثر من وهم، وهم لا غير. وربما يكون الآن قد قضى نحبه في الحرب وإن قيل أن أغلب ضباط الأمن هربوا إلى خارج المدينة ولاذوا فارين إلى جهات مجهولة. نظرت إلى ساعة يدي كانت تشير إلى الرابعة إلا عشر دقائق فجرا، الوقت يسبق ما كان قبل ما يقرب من العام والنصف بأربعين دقيقة.. حين اقتحموني بين أحضان خمائل التي لم تعترض على ما حدث. لا بد من ضبط إيقاع التاريخ بدقة ليكون ذا معنى ومغزى..

في الرابعة والنصف تماما توجهت إلى غرفة خمائل جذبتها بعنف، فزت من نومها هلعة واستبد بها الذعر. سحبتها من شعرها إلى الغرفة وطرحتها هناك على الأرض. لم يكن لملامحها وجود لقد مسخت خمائل مسخا وأمست شيئا آخر. أمرتها بالجلوس على الكرسي أمام المكتب وأغلقت باب الغرفة بإحكام ثم عدت لأتخذ مكاني خلف مكتب التحقيق.

- السيدة خمائل اسمك الثلاثي واللقب؟

لم تجب وبدت ذاهلة، تفوهتْ بكلمات لا علاقة لها بأي نحو من الإجابة عن سؤالي المحدد والموضوعي والمنطقي.. كررت السؤال

بلهجة حازمة وهددتها بأنني سأقوم بتمزيق جلدها إن لم تجب على الأسئلة بشكل دقيق.

- خمائل بدر عاصي المنصوري
- عنوانك الدائم؟
- ...، ...، الحي السكني، قرب صيدلية النورس بيت ثائر مجدول
- عليك الاعتراف بالدور الذي تقومين به للتعاون مع العملاء المخربين..
- لا علاقة لي
- هناك معلومات مؤكدة لدينا تثبت تورطك بعملية تفجير مقر الحزب في الحي واستشهاد الرفاق أبو صباح وعلي وأحد الحراس..

صمتت واكتفت بالتأمل في وجهي.. الصمت دلالة على عدم وجود تبرير لشيء حصل فعلا.. لكنها قالت بصوت متهدج: ثائر ماذا تفعل بحق السماء؟

لا أدري كدت للحظة أن انظر إليها كونها مسكينة بريئة تورطت ربما بسذاجة في مؤامرة كبرى ضد النظام، ولكن هذه الألاعيب كثيرا ما يمارسها المتهمون، إنها تريد الإيحاء لي أنها تعاني من اختلال عقلي حيث تصورت أنني أمت إليها بصلة.. التظاهر بالجنون لم يعد مجديا بعد خبرة طويلة..

لكمتها على وجهها من وراء المكتب وأطلقت صرخة مدوية أجبرتني على التعامل معها بقسوة أكثر، أخذت أحد الأسلاك في الزاوية وضربتها على ظهرها فخرت إلى الأرض..

- اعترفي.. وفري على نفسك الجهد.. ستعترفين في النهاية يا عاهرة

عادت للتظاهر ولكن بالإغماء هذه المرة.. مزقتُ ثوبها البنفسجي الذي كانت ترتديه، ورششت بعض الماء على وجهها وأنا بكامل أنفتي... وضوحي الزاهي الملوّن بأريج رجولتي التي نسيتْها زوجتي.. بدت تفيق بشكل تدريجي وحين أيقنتُ من استردادها لوعي يكفي

للإجابة أعدتُ طرح السؤال لكنها لم تجب.. كان عليّ أن أغرس في رأسها قناعة بأن كل سؤال بلا جواب سريع سيكون عاقبته الضرب الموجع وتتصاعد عملية الإيجاع كلما تكرر السؤال ولم توجد إجابة. انهلتُ عليها بالضرب بذلك السلك الغليظ، كان الضرب يرسم خطوطا حمراء على جسدها وكانت تتقلب هي على الأرض، ساقاها كانا نحيلين أكثر مما كنتُ أتصور وبدت تتشنج من مواضع معينة، وكان بوسعي رؤية وشم صغير على زندها يحمل اسما غير واضح لي لم تعنني عملية التدقيق فيه.. كان الأستاذ ابو بلقيس ينظر لي من زاوية في الغرفة ويوجه لي نصائح بينة لانتزاع اعترافاتها بطريقة محترفة. وجّهني إلى ضرورة تركها في الغرفة وإغلاق الباب بإحكام.. والأفضل إيقاد المدفأة الكهربائية قبل أن أخرج.. كانت فكرة جيدة وفرصة لاستراحتي من عناء عمل يبدو أنه لن ينتهي إلا بعد وقت قد يطول. أشعلتُ المدفأة وخرجت بعد إحكام قفل باب الغرفة كما يجب.

دخّنتُ سيجارتين في باحة الدار وكنتُ أنظر باحتقار للمقبرة التي تضمّ كلبين رفضا الاعتراف بحقيقة ما فعلا في حياتهما البائسة الفائضة عن حاجة السيد الرئيس. دبّ شعور رائع ورائق في نفسي واحسستُ بأنّ أشياء كانت ميتة في داخلي بدأت تتحرك، تنبض بقوة. سمعتُ صوت انفجار مدوٍّ .. لاشك أنه صاروخ أو قنبلة غير منفجرة تمت معالجتها وتفجيرها الآن. انطلق أذان الصبح من مسجد الحيّ ونبهني إلى ضرورة العودة ثانية لإكمال التحقيق مع المتهمة خمائل بدر..

فتحتُ باب الغرفة ووجدتها ممددة في مكانها، كانت تئن بصوت خافت وقد جمعت أطرافها الأربعة إلى مكان واحد. قلبّتها بطرف الحذاء الأحمر الذي كنتُ اقتنيته لهذا الغرض.. التحريك بطرف الحذاء يشعر المتهم بالإهانة الأمر الذي قد يؤدي إلى سرعة انهياره واعترافه بالحقيقة. لكن خمائل بدت مصممة على عدم النطق

بالحقيقة.. كانت تجيب على الاسئلة بصرخة مرعبة .. لا شيء سوى الأنين والأنين .. أخذتُ سلكا آخر وقمتُ بضربها على قدميها ، كان صوت وقع السلك مختلفا بعض الشيء عما هو مألوف، ربما يختلف صوت الضرب بين المرأة والرجل لأنني لم أرَ ضابط التحقيق في المديرية العامة للأمن وهو يضرب امرأة فالحالة الوحيدة هناك أن رأيت فتاة مغتصبة لفظت أنفاسها بعد ذلك بدقائق. أمسكت خمائل من شعرها وسحبتها إلى مقربة من الجدار الذي اثبت فيه أداة التعليق البسيطة .. تحرك راسها بشكل عفوي وصرخت بقوة، لم أكن أظن أن لديها قدرة على الصراخ بهذه الدرجة بعد أن أدميتُ أغلب مواضع جسدها. ركلتها بحذائي ثانية على وجهها وعندها سكتت تماما .. هممتُ برفع جسدها عن طريق ربط يديها إلى الخلف ومن ثم شد الحبل إلى طرفي مشاجب التعليق .. لكن المسألة فيما يبدو بحاجة إلى تدقيق وتأمل، فالجزء الأسفل لجسمها سيكون سائبا بطريقة غير سليمة .. كيف يمكن إلصاقه بالجدار ؟ أمامي خياران الأول أن تكون لدي آله مشابهة تماما لآلة غرفة التحقيق في المديرية وهذا أمر صعب للغاية فيما الخيار الثاني أن أجعل من خمائل بدر أشبه بالصورة المعلقة على الحائط.. سأربطها بطريقة يسعني من خلالها تثبيت أطرافها بإحكام. احتجتُ لقطعتي حديد أخريين لهما بروز سطحي أكبر ومسامير تثبيت وحبلين بطول محدد.. توفرت هذه الأشياء بنفسها وكان أحدهم جمعها لي وألقاها أمامي.. باشرت عملية تعديل هذا الجزء الغير محسوب بدقة كافية ، كنتُ أعمل بلذة منقطعة النظير .. كيف لم افطن إلى حلاوة هذا العمل من قبل ! أنهيتُ تعديل ذلك الجزء ورفعتُ خمائل بدر بعد أن وثقت يديها ورجليها كلا منها بقطعة حبل قمت بقياس الطول المناسب لها. لكن لم تنتهِ العملية على ما يرام. بدت الصعوبة واضحة تعبث بمشهد صافٍ أخذت تعكره هذه المشكلة التي راحت تبرز نفسها كمشكلة كبيرة .. فجسم خمائل ثقيل ولا

يمكنني حفظ التوازن المطلوب له كي يتسنى لي ربط الحبال إلى المشاجب الحديدية الأربعة .. حاولتُ ربط الحبلين الذين شددتهما بمعصميها بالمشاجب العليا وسحبهما على طريقة البكرة لكن ثقل خمائل لم يسمح بحركة الحبلين .. كانا يحتكان بقوة ويمتنعان عن المضي إلى الأسفل صوب يديّ.. عادتْ خمائل للأنين ثانية ووجدت ضرورة إعطائها جرعة من الماء وغسل وجهها لكي تساعدني على وضعها بالشكل المناسب على الحائط.

كان باب الغرفة مفتوحا ، الليل يتخلى عن بعض ملامحه القاسية ونسمات هادئة كانت تدخل من النافذة التي فتحتها لأجل تبريد جوّ الغرفة وقمت بإطفاء المدفأة الكهربائية لمساعدة المتهمة خمائل بدر على استعادة وعيها وتوازنها. شربت جرعات من الماء بهدوء ثم تخلت عن القنينة الزجاجية التي كانت تشرب منها واجتمعت غضونها في نقطة من وجهها قبل أن تنفجر بالبكاء وهي تنظر لي بعينين متوسلتين، ارادت أن تتلفظ بشيء لكن صوتها كان منبغما تماما فاكتفت بتحريك يدها وكأنها تتوسل بي لإعطائها شيئا إذ مدت يدها وأصابعها بطريقة من يدعو او يقبل على ضراعة متأنية .. كنتُ أظنّ أنها تقترب من الاعتراف بحقيقة ما لكنها بعد لحظات لطمت وجهها وألقت بجسدها على الأرض. ذات الحركة التي افتعلها الشيخ راضي في أول وجبة تعذيب جماعية هناك، حيث قام المحقق بضربه بهراوة على متنه وسقط متوسلا بالكف عن ضربه بها ، وأطلق تساؤلاته الحمقاء عن سبب اعتقاله فاخبره الضابط أنه متهم بالانتماء إلى مجموعة تخريبية تستهدف قلب نظام الحكم حينها لطم وجهه وخرّ مغشيا عليه.

اعترف أن شعورا سخيفا بالقليل من الرحمة دفعني لإغلاق النافذة والباب ومنحها فرصة كافية حتى الصباح... وذهبتُ للنوم.

كان الصباح ليس بلونه المعتاد، كان كتلة ضجر قابعة على الأشياء لم أستغرق في نومي سوى ساعتين فقط.. كنت قد نمت بملابسي العسكرية ما أدى إلى تشويه منظرها.. أزعجني ألا أكون بأبهة تحقيقيه كاملة ولكن ليس بوسعي عمل شيء .. الوقت لا يبدو كافيا لكيّ البذلة. أعددتُ لي قدحا من الشاي وتوجهت إلى غرفة التحقيق. كانت ثمة طرقات على باب المنزل تجاهلتها فملّت وتلاشت بعد دقائق.. لم أجد خمائل بدر أفضل مما تركتها، لقد احتفظت بملامحها المصفرة وبدت أنها هزلت إلى حد يثير الغرابة .. لا يمكن لساعتين أن ينقصا وزن الإنسان إلى هذا الحد لكنه على أية حال أمر رائع أن يخف وزنها ما يؤدي إلى سهولة تعليقها. سألتها: ها.. كيف تشعرين ؟ لا مجال سوى الاعتراف بالحقيقة..

كانت قادرة على الإجابة ولو بصوت خفيض يناسب وهنها وضعفها:

- بماذا اعترف؟

سؤال معتاد من المتهمين فهو محاولة لكسب الوقت من جهة ومن جهة أخرى يضمر إنكارا واضحا لكونهم قاموا بشيء يحاسب عليه القانون، لكن المحقق الذي يتمتع بقليل من الذكاء والتجربة بوسعه أن يعرف أن هذا السؤال هو جواب لا يحتاج لغير توقيع صاحبه على الورق بشكل رسمي.. جلستُ خلف المكتب ورحتُ أدخن سيجارتي، سمعتُ لغطا في الخارج ولم اعره اهتماما.. لابد أن شيئا ما حدث لشخص ما فكانت ردة فعل لناس آخرين للتفكير بطريقة ما.. لا أهمية لهذه المآمات، إنني أختلي في عالمي الحقيقي، أجلس حيث يفترض بي الجلوس من زمن طويل جدا. الزمن الذي نزفني خارج دائرة الوجود البشري وأحالني يوما إلى كيان ضائع محروم من تذوق وجوده، فيما كان غيري ينتشون غاطين في بحيرة من العسل والسلطة

الرائعة. يقرعون أنخابهم في صلاة شيطانية تحت ليالٍ ملونة في بساتين وحدائق ومزارع وفنادق فخمة زاهية بكل ما لذ وطاب.

كانت خمائل ملقاة على الأرض كأي تفاهة مقيتة لا تملك سوى عينين مصلوبتين على ذلهما وانكسارهما المستحق. تتلوى بين الحين والآخر من آلام تسعّرها لها بضاضة وترف في المكان الخطأ .. رسمتُ بدخان سيجارتي دوائر مرحة ورحتُ أراقب مشهد تمزّقها في الأعلى وأنا أنظر للحظة بعين حادة متوعدة لذلك الشيء المرمي على جانب والمسمى خمائل بدر. ضوء النهار غيّر بعض ملامح غرفة التحقيق وهتك تلك الظلال الجميلة الرمادية في زواياها. قمتُ وبصقت فوق وجه خمائل بدر ثم طلبت إليها أن تنهض وتطيع كل ما آمرها به، وبالفعل أظهرت هذه المرة تعاونا في مجال رفع جسمها وتعليقه على الحائط وبشكل صحيح جدا.. لم أكن أتوقع تلك السهولة التي جرت بها الأمور وأخيرا كان بوسعي النظر والسير بخطى مختالة أمام صورة كائنية حية معلقة من أطرافها على الحائط وكأنها جثة مصلوبة على لوح.. قررتُ البدء بتحقيق جاد للوصول إلى اعترافات المتهمة خمائل بدر عاصي. سألتها هل بوسعها الاعتراف بدون أن تضطرني لاستخدام أساليبنا الخاصة ؟ فلم تجب بغير الصراخ.. ثم.. شتمتني ! لقد شتمتني خمائل بدر.. تصوروا ! قالت إنني مجنون وإنني إنسان ناقص ومعتوه وغير مستقيم.. ثم صرخت يا ناس يا عالم.. الحقوني .. وأطلقت صرخة جنائزية مدوية .. أعرف كيف أتعامل مع نماذج كهذه وأعرف طريقة الوصول إلى الحقيقة وانتزاعها منها. جذبتُ عمود المكنسة التي كانت مركونة في زاوية الغرفة ورحتُ اختار مواضع الضرب بدقة، اخترت فخذيها وساقيها وأجزاء من يديها لأسحقها سحقا حتى تكسرت تلك العصا الخشبية فيما افتعلت هي غيبوبة جديدة. لم تخدعني بها هذه المرة وتناولت قداحة السجائر فأشعلتها وقرّبتها من شحمة أذنها اليمنى كدتُ للحظة أن أتصور فعلا أن هذه الوقحة غائبة

عن الوعي ولكن مع انتشار رائحة الشواء لشحمة أذنها عادت تلك الصرخة ثانية. عدتُ لسؤالها وعادت لهراء فارغ لا معنى له. حملت سلكا غليظا وتوجهت إليها من الزاوية الأخرى لغرفة التحقيق كان وجهها ميتا يرنو لي برغبة اعتراف مؤكدة ولكن يجدر بي تأجيل تلك اللحظة اللينة حتى تكتمل تلك الرغبة بشكل أكثر قوة وتأكيدا .. وجهت لها عدة ضربات جاءت واحدة منها على وجهها فأدى ذلك إلى إدمائه وانبجس الدم من شفتيها وإحدى وجنتيها فيما أغمضت إحدى عينيها بشدة وغطت في أنين وحشرجة.. داخلني شيء من السأم فقررت الذهاب لإعداد وجبة الفطور، لم أجد سوى بيضة ونصف رغيف من الخبز تناولتهما مع قدح من الشاي وخلعتُ ملابسي العسكرية.. وذهبت إلى النوم.

في المساء خرجتُ من المنزل وتنزهت على الطريق العام حيث ثمة مناظر تستحق المشاهدة كجثة شاب مازالت مرمية على المنحدر الرملي للشارع والغريب أن الجثة لم تمزقها الكلاب بطريقة عشوائية فقد اكتفت بقطع الأطراف ونهش بعض اليدين فيما بقيت الأجزاء الأخرى سليمة محافظة على قوام الجثة كونها جثة إنسان شاب .. هناك في ذات المكان بضعة مدرعات عسكرية عائدة للجيش العراقي كانت محترقة بشكل شبه كامل.. أما جدارية صورة الرئيس التي تقابل إحدى المؤسسات الحكومية فقد كانت محروقة وقد عمد أحدهم إلى تهديم ما حولها من آجر وسرقته. مرت بي وأنا أسير بخطوات متهادية مجموعة من النسوة يحملن أكوارا من الأخشاب والصناديق المهشمة، لم أكن اعرف أن عمليات السرقة ما زالت مستمرة ولكن يبدو أن البقية الباقية كانت حصة بعض النسوة اللواتي أبى أزواجهنّ الاشتراك بسرقة المؤسسات والدوائر العامة. وجدتُ أحد جيراني مع زوجته وهما يسحبان عمود حديدي طويل، سألته عما ينوي فعله بهذا العمود فرد بعبارة شتم من خلالها زوجته

واستمرا يقاسيان عملية حمل ذلك العمود الذي بقي السؤال عما يصلح لأجله من غرض يدور في ذهني. الشارع الرئيس الذي يقسم حيّنا إلى جزئين متساويين كان قد شهد تلك اللحظة التي قررت فيها العودة إلى المنزل مجموعة من السيارات تصطف وراء بعضها البعض كان الأمر شبيها بموكب عرس ولكن لا توجد تلك الأشياء التي تزين واجهات السيارات في مناسبات زفاف العروس ونقلها إلى بيتها الجديد كذلك لم يطلق السائقون أبواق سياراتهم كما هي العادة. سألتُ أحد المارة عن هذا الموكب فردّ بأنه لا يدري .. وراح ينظر إليه كأنه قد التفت للمشهد تلك اللحظة رغم انه كان آتيا من ذات الشارع والموكب يسير بالقرب منه. تبين لي بعد مرور تلك السيارات التي كانت تسير ببطء أن الموكب بالفعل موكب زفاف أحد الشبان في الحي بل تمكنت من رؤيته يجلس في السيارة الأولى وتذكرت أنني قابلته ذات يوم في بيت ما .. واختلفنا حول أمر لا أذكره بالتحديد. وإنني على ثقة أن القضية تتعدى كونه مجرد وجه مألوف كالذي يشعر المرء انه قابله يوما وهو لم يره البتة، أبدا لقد كان وجها معروفا بالنسبة لي. منظر التطلع إلى غروب الشمس من الساحة الفاصلة بين مجموعة البيوت التي يقع بيتي من ضمنها وذلك الشارع يعيد نسج ملامح الأشياء ويداخل الأزمنة مع بعضها بطريقة طالما أثارت في داخلي تساؤلات عن السماء.. اعترف أنني أحمل بعض الأفكار الغريبة وربما الغبية فمجرد حضور السماء يدفعني إلى التفكير ببعض أيام جدتي التي كانت تقص لي حكايات مرعبة عن الموت والموتى وكيفية حسابهم، سألتها مرة وهي في ذروة الحماسة لتفصيل كيف يأتي الملكان ويسألان الميت عن ربه من هو ودينه ما هو و.. و.. عما إذا كان الإنسان هناك مختارا ؟ هل يستطيع الميت قول ما يريد أم أن أجوبته مقدرة له ومفروضة عليه ؟ صمته كذلك هل هو اختيار وإرادة إلهية ؟ قالت لي إن الإنسان يا بنيّ حين يذنب تلجمه ذنوبه عن قول شيء ولا يقوى على النطق .. كنتُ غبيا إذاً

لماذا لم اقل لها: ولماذا نُسأل إذاً ما دامت الأمور تجري هكذا .فليُلقَ المذنبون إلى جهنم والمؤمنون إلى الجنة وانتهى الأمر! خمائل بدر الآن بمقدورها الاعتراف بذنبها بالحقيقة مثلما هي لها أن تبرر جريمتها.. في كل محكمة ولو ظالمة يستطيع المتهم أن يبرر جريمته .. فلماذا لا يمنحنا الله فرصة مماثلة؟!

عدتُ إلى البيت وذهبتُ لارتداء بدلتي الزيتونية والذهاب إلى غرفة التحقيق.. كانت خمائل بدر تئنّ وهي تتعرق بغزارة، كان اصفرارها شيئا متجانسا مع المشهد جدا فيما ظهرت أورام على يديها وفخذيها، ومناطق حمراء طافحة تميل أطرافها إلى الازرقاق على جوانب صدرها وكتفيها. أما وجهها فقد جفت قطع من الدم على مناطق منه فيما انتفخت عينها اليسرى بشكل عجيب. كنت أكرر سؤالي وكانت تكرر إجابات تافهة .. عادت لشتمي بلسان لعين وتلهج بسؤال لا معنى له، ثم قالت بصوت صدئ النبرة يشبه بكاء طفلة مخنوقة: ماذا تريد.. ولك عوفني دخيل الله.. اذبحني ولك ثاثر وخلصني.. يويه .. يمه.. آخ يا ربي.. سعلتْ بشدة وبدت كما لو أنها تختنق.. أمر طبيعي فشدة التعرق وعدم تناول الطعام يؤدي إلى جفاف والجفاف مع التحقيق يؤدي إلى الاختناق هذا ما قاله لي الأستاذ أبو بلقيس ولا شك انه أعرف وأعلم. قرّبت إناء الماء من فمها فشربت منه وقمت بغسل وجهها بكل رقة ورأفة أوقن بأن الملكين في القبر لن يقوما بهذا مع أي ميت هناك. رأيتها تجذب أنفاسها بشكل أقل اضطرابا مما كانت عليه قبل دقائق. اتخذتُ مكاني خلف مكتبي وسألتها بشكل هادئ :

- أخت خمائل كل ما نريده منك هو الاعتراف بالحقيقة وقولها فقط.. لا شيء أكثر من ذلك.. هل هذا أمر صعب؟

ردت ببكاء ونحيب كان ضروريا جدا لتجاوز لحظة انهيار شعرت بها وافترت خلالها من قول الحقيقة كما هي. استمرت تجهش بالبكاء.. كانت دموعها تنهمر من كلتا عينيها حتى تلك التي كنت

أحسبها دامية قد انطفأت تماما. حاولت إقناعها بأن الاعتراف سيوفر على نفسها كل هذا العناء.. وأخيرا هزّت راسها علامة على قبول الاعتراف.. لكنها للأسف لم تأتِ بأي جديد.. فقط قالت: حسنا كل ما تود أن أعترف به قله وسأعيده أمامك الآن.. شعرتُ أنني امنح هذه الماهرة فرصة ليست جديرة بها ، إنها ذات رأس يابس كما قال الأستاذ أبو بلقيس ولا بد من تليينه أو تهشيمه. عندها جذبت حمالة صدرها وسحبتها بقوة فانفلتت في يدي.. نفس الشيء أردت فعله مع لباسها الداخلي ولكن كان غير خاضع لذات الطريقة فشققته بشفرة حادة... ولوحتُ لها بتلك الشفرة..

- الآن هل تعترفين أو لا؟ بكلمة واحدة وبسرعة.. هيا..؟؟

لم تضف شيئا سوى الصراخ والعويل الذي وجدت أبا بلقيس يستعذبه نوعا ما. كان منظر فرجها مقرفا وتزيده تلك الشعيرات الكثيفة بشاعة وقرفا .

- سأمزقه لك.. ما رأيك؟

وبالفعل أعملت الشفرة بذلك الشيء الخبيث ، سلخت منه قطعتين صغيرتين من لحمه الذابل وجلست نصف جلسة لأتمكن من تقطيعه جزءا جزءا حتى أسمع منها اعترافها لكنها اكتفت بصرخة عاهرة لم صمتت.. لم أرفع راسي للنظر إليها وأكملت عملي في تحديد ما يجب قطعه وإلقائه جانبا ، كان تدفق الدم بغزارة قد أفقدني فرصة معرفة الجزء الذي أقوم بتحديده لقطعه ، فأدى ذلك إلى قطع جزء أكبر مما أردت وألقيت تلك القطعة إلى الأعلى فاصطدمت بصورة السيد الرئيس ورأيتها تقع على الكرسي الذي أجلس عليه خلف المكتب. لم يرقني أن تتخذ تلك القطعة من فرج خمائل بدر مكاني فسارعتُ إلى إزاحتها والتطويح بها في زاوية الغرفة حيث كان الأستاذ أبو بلقيس يتفرج بلذة ماتعة. انتبهت فيما بعد إلى ملابسي العسكرية وقد تلطخت بالدم.. الدم الذي راح ينصبّ على الأرض ليشكل بركة تحت ذلك الجسد

المعلق فوقها .. تباين حاد بين منظرها ومنظر تلك المرأة التي سحقها ضابط التحقيق السابق باغتصابه لها بطريقة محترفة أراد لها نتيجة مناسبة جدا.. لكن أسلوبي يختلف نوعا ما، وها هي خمائل بدر غير قابلة للاغتصاب الآن.

التقت نظراتي بنظرتها الجامدة لعينها المشبوحة صوب السقف. لا يبدو عليها أنها تشعر بشيء من الألم. قبل أن أخرج فككت قيود خمائل وطرحتها أرضا وقمتُ بتضميد جراحها لإيقاف النزف الذي كانت تعاني منه ثم غطيت جزءها الأسفل بذلك الشرشف الملطخ بدماء هاشم.. تركتها وذهبت لغسل يدي وأطراف قميصي من الدم الذي لطّخها

-18 -

حين عدتُ في الساعة الثامنة والربع عصر ذلك اليوم، الثلاثاء الموافق 2003\5\13 وجدتُ خمائل بدر قد فارقت الحياة، كانت جثة عارية.. شيئا ما تيبّس في عنقه لينكمش ويصدأ. قلّبتها قليلا كان الدم لا يزال يسيل من بين فخذيها ولكن ببطء. طويتها ببطانية قديمة وحملتها لأقوم بدفنها قريبا من قبر هاشم في حديقة المنزل. بعد أن انتهيت وجدت من المناسب توثيق اعترافاتها، توثيق الاعتراف فن من الفنون التي يتقنها القلة كما أخبرني الأستاذ أبو بلقيس ذات ليلة صالية بالتعذيب رأيت فيها اثنين من ضباط التحقيق وهم يختلفان حول تدوين قوال لأحد المعتقلين. فهمت فيما بعد أن الكثير من الاعترافات استنتاجات تحتاج لذكاء وذهن متوقد وذاكرة جيدة فالمطلوب غالبا فهم ما وراء المنطوق.. ما وراء الأقوال الصارخة من هدوء للحقيقة التي وقعت يوما أو لم تقع. عدت إلى الغرفة وجلست خلف مكتبي وأخذت أدون اعترافات خمائل بروية وأنا أعيد شريط أقوالها المتقطع

لاستخلص منه الحقائق وأستلّها واحدة بعد الأخرى، كان يجب أن تقر بها قبل أن تذهب لجحيمها.. ربما كان بودها الانتظار قليلا للإدلاء بها فكثيرة هي الاعترافات التي تسجل بعد موت أصحابها الذين كانوا يودون الانتظار للنطق باعترافاتهم، خمائل لا تختلف بالتأكيد.. فمن غير المعقول أنها ستقاوم التعذيب الذي تعرضت له على يدي، لكنها ماتت، وفيما يلي نص اعتراف خمائل بدر عاصي الذي وقعته بإسمها: وهو وثيقة تنشر لأول مرة:

أنا المدعوة خمائل بدر عاصي المنصوري أقر واعترف بالآتي :

في صيف عام 2001 تمّ اعتقال زوجي ثائر مجدول من بيته ومن بين أحضان سرير الزوجية الخاص بممارسة نشاطنا المعتاد بتهمة ملفقة ولم تثبت عليه أية أدلة تدينه بخرق القوانين ونظم الدولة. واستمر احتجازه في معتقل المديرية العامة للأمن مدة ستة أشهر تقريبا تعرض خلالها للقهر والتعذيب الجسدي والنفسي وتم أثناء إحدى جلسات التعذيب قطع عضو مهم وحيوي من أعضائه. وفي صبيحة أول أيام اعتقاله ذهبت إلى صديقه المدعو هاشم بغية التوسط للإفراج عنه. أعترف أنني عرضت على هاشم صفقة مؤداها أن أهبه أحضاني مقابل إطلاق سراح زوجي وقد وافق الشخص المشار إليه دون أن يعطي أية ضمانة بل اعترف انه لم يقل شيئا سوى انه قادني إلى مضجع المعاشرة وبعد يومين تأكدت من انه غير جاد في إخراج زوجي من السجن إذ جاءني إلى البيت ومارس معي نفس الفعل المشين برغبة تامة مني وبعد إخباري إنني يجب أن أنسى كائنا حيًا أسمه ثائر مجدول. أعترف أيضا بأنني كنتُ قد رغبت فيه أشد الرغبة بعد أول تماس لي معه على السرير في منزله واستمر الأمر لمدة ستة أشهر كاملة نلتقي جسديا مرتين في كلّ يوم غالبا مرة في النهار وأخرى في الليل وكان في كل مرة تقريبا يدفع لي مبلغا متواضعا من المال. بعد خروج زوجي من السجن وإطلاعي على انه قد فقد ما فقد حاولت الاستمرار مع


التنوير